جوزيف جاسترو

الأحلام والجنس

نظرياتها عند فرويد

الجزء الأول

ترجمة

فوزي الشتوي

مراجعة

أمين مرسي قنديل

الكتاب: الأحلام والجنس.. نظرياتها عند فرويد (الجزء الأول)

الكاتب: جوزيف جاسترو

ترجمة: فوزي الشتوي

مراجعة: أمين مرسي قنديل

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جاسترو ، جوزيف

الأحلام والجنس.. نظرياتها عند فرويد (الجزء الأول)/جوزيف جاسترو، ترجمة: فوزي الشتوي، مراجعة: أمين مرسي قنديل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ٨١ – ٦٧٧٤ –٩٧٧ –٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٥٠٠٦ / ٢٠٢٠

الأحلام والجنس

نظرياتها عند فرويد



هذه ترجمة كتاب

FREUD
HIS DREAMS AND SEX THEORIES
THE HOUSE THAT FREUD BUILT

JOSEPH JASTROW

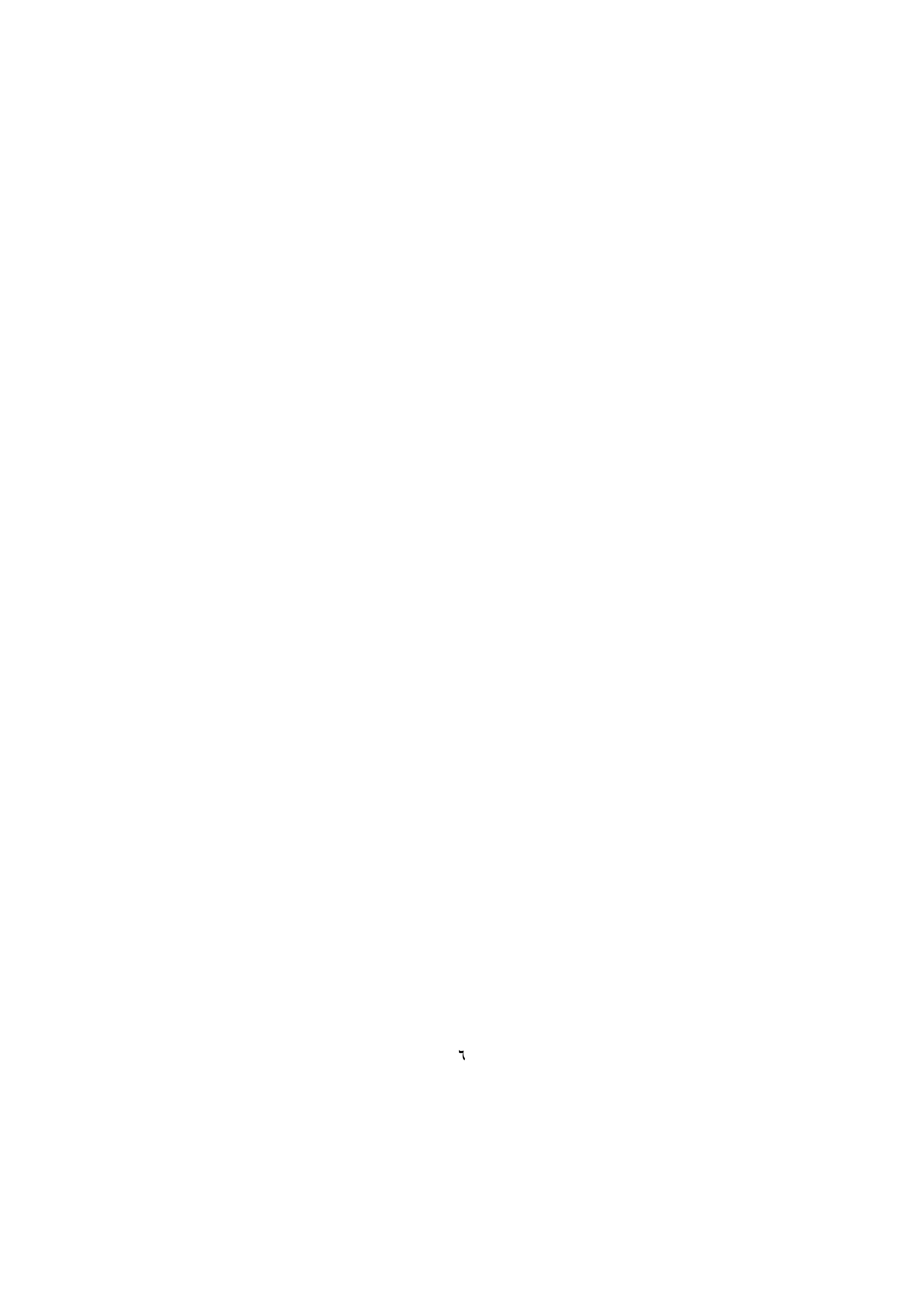
التعريف بجوزيف جاسترو

جوزيف جاسترو _مؤلف هذا الكتاب_ من النفسيين الممتازين الذين ظفروا بتقدير الهيئات العلمية النفسية في أمريكا قد ولد في مدينة وارسو ببولندا في ٣٠ يناير من عام ١٨٦٣، أي أنه كان أصغر من "فرويد" بنحو سبع سنوات، وتلقى تعليمه في أمريكا، فظفر حتى عام ١٨٨٦ بدرجة الدكتوراه من جامعتين من أهم جامعاتها، وعين أستاذاً لعلم النفس بجامعة "هوبكنز" فشغل هذا المنصب نحو أربعين عاماً، وقد ألف عدة كتب في علم النفس، تناول فيها "تحت الشعور" وصفات الإنسان، وخلقه، والعقلية، والتفكير.

وتوفي جوزيف جاسترو في ١٨ يناير عام ١٩٤٤، فكان كتابه "الأحلام والجنس ونظرياتها عند فرويد" من أهم الكتب التي صنفها.

وقد صدر في مايو ١٩٣٢، فكان عنوانه الأول "البيت الذي بناه فرويد".

المترجم



مقدمة المترجم

يتمتع التحليل النفسي بمركز ممتاز بين الناس لصلته الوثيقة بحياتهم الخاصة في انفعالاتهم، وأحلامهم، وتربيتهم لأطفالهم، ومدى فهمهم لأنفسهم ولسواهم في صحتهم ومرضهم، فلا غرو إن شاعت تعاليمه على لسان عدد كبير من المثقفين .. وكثير من مواده لا يزال مثاراً للجدل بين الباحثين في علوم النفس، فيراه بعضهم شعوذة ودجلاً، بينما يجد فيه فريق آخر عدداً من المبادئ الهامة التي استخلصوها من مجموعة مواده وأضافوها مغتبطين إلى علم النفس.

"والفرويدية" لا تهدف إلى علاج الأمراض العصابية فحسب، بل يمتد أفقها إلى محاولة فهم الحياة النفسية كلها، وإلى إحداث ثورة اجتماعية تسعى لإسعاد الفرد بإبعاد مصادر الصراع التي تسبب تعاسته، وتنزل به العقد النفسية والأمراض العصابية، وبرغم كل ما تعرض له التحليل النفسي من هجمات عنيفة فإنه يحتل مركزاً هاماً في علاج الأمراض النفسية، وقد كتب الباحث النفسي الدكتور "إيزنك"[١] المحاضر بعدة جامعات بريطانية وأمريكية ومدير مصلحة علم النفس بمعهد الأمراض النفسية ببريطانيا في كتابه "علم النفس في حالات استخدامه وسوئها" فقال "وتوجد وسيلتان هامتان لعلاج الأمراض النفسية، وهما "الفرويدية" أو التحليل النفسي، ثم الوسائل الانتقائية التي يستخدمها أطباء النفس من غير "الفرويديين".

---

[١] H. J EYSENK: Uses And Abuses Of Psychology وقد طبع لأول مرة في عام ١٩٥٣.

وأشار الباحث إلى إحصائيات أطباء النفس عن حالات العلاج، فقال إنها يجب أن تؤخذ بقدر كبير من الحذر، ثم قال "أما أولئك الذين يستخدمون الوسائل الانتقائية في علاج مرضاهم، فيقولون أن مريضين من كل ثلاثة يتجهان إلى الشفاء أو التحسن بين مرضاهم بنحو نصف الحالات، ويرجع سبب انكماش معدل الشفاء عندهم إلى الحقيقة المعروفة، وهي أن عدداً كبيراً من المرضى الذين يعالجون بالتحليل النفسي لا يتمون العلاج بسبب طوله، ومن ثم فهم يعدون حالات فاشلة، وإذا ما صححنا الأوضاع، فإن معدل حالات الشفاء والتحسن بالتحليل النفسي يتساوى مع حالات الوسائل الانتقائية.

وكتاب "جاسترو" يعطينا فكرة عامة جيدة عن مذاهب فرويد وتلاميذه ومدى اختلافاتهم، ويوضح في جلاء ما هو مقبول من المبادئ "الفرويدية"، وما يحتاج إلى دليل يؤيده، كما يعرض الشاذ الذي يرفضه العقل والمنطق، وبرغم مضي سنوات على صدور مؤلفات فرويد فإن كتاب جوزيف جاسترو يعد من خير الكتب التي عنيت بعرض المذاهب "الفرويدية" ونقدها بروح طيبة رغم ما يبدو من نقد لاذع في بعض الأحيان.

أما "سيجموند فرويد" فقد ولد في مدينة فرايبورج بمقاطعة مورافيا في ٦ مايو ١٨٥٦ ، وانتقلت به أسرته إلى فينا، وهو في الثالثة من عمره، وتلقى تعليمه في سبرل وفينا وسالبتريبه.

وكانت دراساته واسعة النطاق فتنقلت من القانون إلى التاريخ الطبيعي، وفي عام ١٨٨٤ اشتغل مساعد طبيب في المستشفى العام بفينا، ثم سافر

إلى باريس في عام ١٨٨٥ ليدرس الهستريا مع "شاركوه"، ومن هناك عاد فرويد بأول وحي عن فكرة التحليل النفسي.

وفي عام ١٩٠٢ عين أستاذاً لعلم الأعصاب في جامعة فينا، وفي ١٩٠٣ أنشأ حلقة التحليل النفسي التي اشتهر أمرها، فتألفت لها عدة فروع أخرى في شتى البلاد، ولما كان عام ١٩٠٨ عقد أول مؤتمر دولي للتحليل النفسي في مدينة سالزبرج بسويسرا.

وفي عام ١٩٠٩ تألفت الجمعية الدولية للتحليل النفسي فكان من أغراضها تنظيم الدعاية، والحد من مغالطات غير المخلصين من المشتغلين بالتحليل النفسي.

ص٤وقد يلاحظ بعض القراء بطء العلم في تحقيق ما اختلف عليه العلماء في التحليل النفسي، ولكن نظرة إلى الماضي الطويل وما سجلنا فيه من اكتشافات نفسية تقنعهم بأن علم النفس تقدم بخطوات واسعة منذ ظهر "فرويد" الذي فتح آفاقاً جديدة لسير أغوار النفس البشرية الشديدة التعقيد.

وقد حرصت في ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية على المحافظة على معناه ودقة ألفاظه، وحاولت جهدي استخدام الألفاظ الفنية العربية الشائعة عند النفسيين الشرقيين، وكان هدفي أن لا يضل القارئ بين معاني الألفاظ المانعة ذات المعاني المتفاوتة، وكلما واتتني الفرصة فسرت في الحواشي ما تيسر من الألفاظ في معانيها العامة، والخاصة، وفي المذاهب المختلفة.

ولقد كانت معاونة أستاذنا الكبير "أمين مرسي قنديل" في مراجعة النصوص خير مرشد، ذلل كثيراً من العقبات التي تيسر حلها بفضل سعة علمه واطلاعه ودقته، فلم أقدم شكري وتقديري.

فوزي الشتوي

إهداء

إلى المدرسة الحديثة الاجتماعية

أهدي هذا الكتاب اعترافاً بخدماتها في شحذ التفكير وانعاشه.



شكر وتقدير

إن الكتاب[٢] الذي اشترك في جمعه وتصنيفه كل من هيلي وبرونر وباورز، ولم يدخروا جهداً في تنسيقه وجمعه كان لي مرجعاً رشيداً بما فيه من نصوص وتعليقات، وقد وفر على الكثير من ساعات الكدح الشاقة، فهو مرجع ييسر على الباحث عمله حقاً، فأقدم إليهم تقديري شاكراً.

وفي كل مرحلة من مراحل إعداد هذا الكتاب، من عنوانه إلى خاتمته ظفرت مسودته بالنقد القيم من زميلتي الآنسة يونجانز[٣]، فلها شكري الشخصي والمهني.

المؤلف

---

(٢) Healy, Bronner and Bowers: The Structure and Meaning of Psychoanalysis.

(٣) Elsie Junghans.

تمهيد

التحليل النفسي مجموعة ضخمة من المبادئ والتعاليم، وتناولها بالتمحيص الدقيق من المهام الجديرة بالتحقيق، وهذا ما برر وضعي كتابي هذا، ولعله من الأفضل أن أوضح للقارئ والناقد أن تقدير أهمية البناء الذي شيده "فرويد" يتركز أكثره في الجزء الأخير من الكتاب، وخاصة في الفصل الختامي منه، أما آرائي الخاصة عن تلك الساعات الطويلة المتكررة المثيرة التي أمشيتها في دراسة ما كتبه فرويد، وما كتب عنه، فذات سمات مختلطة، فكثير مما قرأت نفايات تافهة، وقليل منه درر ثمينة، ومع ذلك فإن إيماني بأهميتها، إذا ما نقيت من شوائبها، ظل كما هو لم يتزعزع.

وكانت مهمتي أن أفصل الغث عن السمين، وأنا مؤمن في أغلب الأحيان بقدرتي على موازنة أحكامي، ولقد تشاورت مع كثيرين من الخبراء في علم النفس، وأطباء العقل من كل مذهب، ومع خبراء التحليل النفسي في شتى الاتجاهات، فسمعت الكثير ووعيته، وقدمت ما لدي من الاعتراضات، فأصغو إليَّ، ولكنهم وضعوني في مواقف غير سارة.

أما نغمة الجزم واليقين عند المحللين النفسيين الملتزمين، وأما الأحاديث الافتراضية المعقدة الطويلة التي يلفون بها تعاليمهم، ويمجدونها بها، فهي من سوء حظ القارئ، ومن سوء حظي لما عانيت

منها من متاعب، ولقد خفضت الاقتباس إلى الحد الضروري، فإن هندسة البناء الذي شيده فرويد نشأ أكثرها بعد تكوين الفكرة، وعلى هدى خطط مماثلة كثيرة انطلق تلاميذه في حرية، فبنوا هم أيضاً أكواخهم وقصورهم الواسعة، فكان عليَّ في كثير من الأحيان أن أفهم تصميمها على قدر استطاعتي، وفي هذه الرحلة التي نظمتها بنفسي لم أستطع إعفاء القارئ من بعض الممرات المربكة المؤلمة، ولا من الدهاليز الخفية في ذلك الصرح الشامخ.

ولقد خففت عبء الرحلة بتوجيه اهتمامي إلى ما في الصرح من نواح رائعة أخاذة، ولو كانت سماته أقل في الإقناع من سواه في ذلك الإنتاج المدهش ذي المغزى، وقابلت الصراحة بالصراحة، ولم أترك القارئ في أي ريب بشأن أرائي الخاصة.

جوزيف جاسترو

مقدمة المؤلف

عندما صدر هذا الكتاب[٤]، كانت شخصية خطرة مصابة بمرض البرانويا ترقى إلى مصاف القوى الدكتاتورية، وفي السنوات التالية لصدوره كانت هذه العقلية المعتلة قد فرضت أوهامها على شعب موتور يسير كالأوزة، ويميل إلى أن يضلل بألفاظ وتعاليم نظرية غير عملية تبرر الوسائل التي كانت تتخذ لإرهاب السلام في أوروبا، وتبع ذلك فيض من التصريحات والتهديدات، فنفى أناس، وصودرت ممتلكات، وأنشئت معسكرات اعتقال، ونقضت عهود، وحدث غزو وتدمير.

وقابله أحد رؤساء الوزارة البريطانية في بعثة تهدئة، ولما عاد، نشر في ثقة مذكرة تحمل إمضاءه وإمضاء هتلر، وفيها أكدا إمكان العثور على حلول ودية للخلافات التي يمكن أن تنشأ بين الإمبراطوريتين اللتين يمثلانهما، ولكن هذه الوثيقة في نظر طبيب لن تكون أكثر قيمة من كلمة أو تصرف يصدر عن شخص غير مسئول مصاب بمرض البرانويا، فهو لا يحس بقيمة التعهدات والنواحي الإنسانية، ومغزى ذلك في الفترة الحالية، أنه إذا ما حان الوقت، فمن الجائز أن يقدم طب الأمراض النفسية مفتاح الحوادث التاريخية.

---

[٤] طبع هذا الكتاب أربع مرات في عام ١٩٣٢ بعنوان "البيت الذي بناه فرويد" ثم أعيد طبعه في عام ١٩٤٠ بعنوانه الحالي، وفي تلك السنة كتب المؤلف هذه المقدمة .. أما رئيس الوزارة البريطانية الذي قابل هتلر فهو سير نيفل تشمبرلن. (المترجم)

وأي طبيب نفسي بعيد النظر يدرك أن دكتاتوراً واحداً مصاباً بالبرانويا، وله نصيب كاف من الأتباع، يمكن أن يعكر صفو المدنية، فإن توجيه حياة الشعوب مثل توجيه حياة الفرد يعتمد في أساسه وجوهره على سلامة العاطفة والتقدير والقيادة.

ومن النكبات وألوان الإرهاب التي أنجزتها دوافع النفسية الهتلرية المعتلة، اغتصاب النمسا، وما تبعه من نفي مؤسس التحليل النفسي إلى بريطانيا حيث دعي لتدوين اسمه في سجل الشرف للجمعية الملكية.

وكانت آراء هذا الشيخ المريض غير الآري مدمرة للعقائد الدكتاتورية، حتى أن اطلاق سراحه من قبضة معتقليه النازيين احتاج إلى فدية قدرها ربع مليون شلن قدمتها أميرة يونانية، وفي ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩، وفي الثالثة والثمانين من عمره توفي سيجموند فرويد في لندن، فمات محروماً من مسكنه وأملاكه وكتبه وأوراقه، وزال هو، وبقيت جهوده العظيمة في محاولة العثور على تفسير جديد للدوافع التي تحرك الإنسان، وأياً كان اتفاق الفرد واختلافه مع بناء التحليل النفسي، فإن عقلية مبتكرة لامعة قد دمغت عهداً بطابعها الخاص مما أدى إلى تقدم التفكير مسافة طويلة عما كان عليه قبل عهد فرويد.

وهذا الكتاب يعرض ملخصاً ينقد النظام النهائي لفرويد وأتباعه، وما ينطوي عليه من مقومات، وهو كتاب من الجائز أن يحتفظ بالمركز الذي احتله عند ظهوره معتمداً على ما به من حسنات ومغريات، فلم يظهر في السنوات الماضية مؤلف يصح أن يقارن به، مع أن الاهتمام بما

قدم فرويد ظل مستمراً في هذه الأوقات العصبية لعالمنا المضطرب، وقد صدرت أخيراً "مجموعة كتابات سيجموند فرويد[٥]" The Basic Writing Of Sigmund Freud وهي تقع في ألف صفحة، وقد احتلت مكانة شعبية ممتازة في انتشارها.

وفرويد أكثر من أي مفكر حديث آخر في حاجة إلى تعليق انتقادي، فبدونه يضل القارئ العادي، بينما يحتاج المحترف إلى خريطة

---

[٥] قدم هذه المجموعة الدكتور "أ . أ . بريل" (A. A. Brill) وهو من أنشط زعماء الحركة الفرويدية في أمريكا، وهي تحتوي على المؤلفات التالية: "علم النفس المرضي في الحياة اليومية" The Psychopathology of Everyday Life وتفسير الأحلام (The Interpretation of Dreams) "وثلاث مساهمات في نظرية الجنس" Three Contributions to the Theory of Sex "والفكاهة وعلاقاتها باللاشعور" Wit and its Relation to the Unconscious و"طواتم ومحرمات" Totem and Taboo "وتاريخ حركة التحليل النفسي" The History of Psychoanalytic وقد طبعتها "مودرن ليبراري" The Modern Library في عام ١٩٣٨.

وفي عام ١٩٣٩ ظهر لفرويد تحليل نفسي عن "موسى والتوحيد" (Moses And Monotheism) وكان قد بدأه في فينا، ولكنه أتمه في لندن، وفي هذا الموضوع عاد فرويد إلى المشكلة الثقافية، وفيها تتجمع الأساطير وعبادة البطل، وخطر المحرمات والطواتم الرمزية، وكيف تلاقت جميعها لتؤلف ديناً وشعباً ظل في حالة ترحال عدة قرون منذ خروجه من مصر إلى المنفى، فكان يلون التاريخ في كل موطن حل به حتى وصل إلى الدنيا الجديدة، وكان اهتمام فرويد يتركز في الضوء الذي أضفاه التحليل النفسي على أصل الناموس الموسوي، وهو مؤلف تأملي صريح في كل مراحل تفسيره.

وفي عام ١٩٣٣ أصدر فرويد تنقيحاً يعد استمراراً لكتابة "مقدمة عامة للتحليل النفسي" General Introduction to Psychoanalysis، وفيه قدم قليلاً مما يؤثر على مبادئه الرئيسية، ولكنه كان أكثر صراحة وأقل اطراداً، وإلى حد ما أكثر تغلغلاً في المسائل الشخصية إذا ما قورن بمحاضرته في عام ١٩١٦، (ترجمها إلى الانجليزية ستانلي هول G. Stanley Hall وصدرت عام ١٩٢٠) وفي هذا التنقيح ظل منطقه على حاله، فجاء التعديل في العبارة نتيجة لتفسيرات جديدة وردت من المحللين (نقلها إلى الانجليزية و . ج. هـ. سبروت) (W. J. H. Sprot) ونشرها نورتون W. W. Norton وعنوانها "محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي New Introductory Lectures on Psychoanalysis وقد كتب فرويد هذه المحاضرات لقرائه بعد إجراء جراحة في حنجرته مما حرمه من القدرة على التحدث إلى مستمعيه، فإن السجية الأكاديمية كانت تلائم طريقة عرضه. (المؤلف)

ترشده، فالتسلسل الفكري في عالم فرويد ينتقل في نطاق مبهم غامض، وبرغمه استمع له الناس بعد سنوات من أنواع المعارضة العنيفة والجدل الطويل، وظلوا يتساءلون في إلحاح وإصرار ما هي المبادئ السليمة المغرية في البيت الذي بناه فرويد وأثثه؟ وما هي المسائل غير العلمية والمضللة فيه؟

ولا ريب أن تقدير قيم النتائج التي وصل إليها فرويد، ووضعها في مكانها اللائق بها جوهري بالنسبة لمن يسعون إلى فهم مشكلات الحياة الصحية السليمة المعقولة، وكذلك لفهم الخلافات على أسس تلك النتائج ووسائلها، ولا يستطيع الفرد أن يقتصر على نصرة فرويد أو معارضته، بل يجب أن يقدر ما قدمه ويضعه في مكان ما في وجهات النظر العامة للحياة النفسية.

وقد ختمت نقدي بالتنبؤ عن اتجاه جديد، إذ بدا لي أن الأمل يسير في طريق تحقيقه، ورغم أن شتى المعسكرات بقيت كما هي تعرض أعلامها وبيارقها، فإن الغالبية العظمى من خبراء علم النفس والأطباء النفسيين والجمهور المثقف تتفق على وجوب إنقاذ المنتجات الهامة في عالم التحليل النفسي بعد أن تعددت صياغتها، وأن تسمح لألوان التطرف والمبالغة في حركة تغلغلت في وجهة النظر الحديثة بأن تطوى في زوايا التاريخ.

وأتباع فرويد يبالغون ويتخذون لأنفسهم مجالاً فسيحاً في قبول تعاليم مؤسس حركتهم، والنظرة العامة إلى المبادئ والوسائل العلمية

والفنية تكشف عن جبهات متشعبة متباينة، رغم أن فرويد نفسه لم يتحول إلا قليلاً عن مكانه الأصلي، وهو يعترف في الطبعة المنقحة من كتابه عن تاريخ حياته الذي صدر في عام ١٩٣٥ بأن الاعتداءات الجنسية التي وردت في الاعترافات التحليلية يحتمل أن تكون وهماً أكثر مما هي حقيقة، ولكنها ظلت معتمدة في شتى الأصول، ومثل ذلك أيضاً طاقة اللبيد Libido تشع من الجنس إلى التمسك بمطالب "الأنا" Ego Assertion وهذه بدورها تختلف من النرجسية أو حب الذات Narcissism إلى اللبيد الموضوعي Object Libido أما أهمية السنوات الخمس الأولى من العمر بما فيها الحياة الجنسية الطفولية، ومسألة البقاء المستمر لخواص مرحلة "أوديب" Oedipus، فيجب أن تظلا كما هما، وإلا فلن يكون هناك تحليل نفسي، ومما لا يستغنى عنه أيضاً في الفرويدية مسألة التحويل Transference وهو صلة عاطفية شديدة، ومن الجائز أن تنقلب من الحب إلى البغض بين المريض والمحلل النفسي، وهذا راجع إلى أن الصلة بينهما تعيد بعض وجوه الموقف "الأوديبي" الأصلي أو ما يشبهه من علاقات.

والتحليل النفسي وحدة كاملة حتى أنه يقرر تفاصيل ممارسته بطريقة لا تقل عن تقريره لنظريته النفسية، ولا يجوز لأي إنسان الخروج على هذه المبادئ، حتى أول أبطال فرويد الأجانب "كارل يونج" Carl Jung وهو من زيوريخ، لم ينج من الأبعاد، ولم يشفع له اشتراكه مع فرويد في الاهتمام بالتفسير التحليلي للأسطورة والتخيلات، وكذلك إضافته "اللاشعور الجماعي" Collectiue Unconsciovs، ومن موقفه

المحايد كتابع ومبتكر، سار يونج في خطوات فرويد، ونقل اهتمامه من الناحية العيادية إلى النواحي الثقافية لعلم نفس الأعماق Depth Psychology.

ويتزايد شيئاً فشيئاً عدد من يميلون إلى مذهب الفرويديين المحدثين ممن ظلوا فرويديين في اتجاهاتهم، ولا سيما فيما يختص بوجهة النظر الخاصة بأمراض العصاب، فيتفقون على أن المبادئ وتطبيقها يجب أن تنسجم مع الأصول المعتمدة في علم النفس، والتي فهمت على أسس طبيعية، وهو موقف عرضناه عدة مرات في هذا النقد[٦].

وأدى التحرر من الاستمساك بالفرويدية إلى انتشار آراء ألفريد أدلر Alfred Adler في نطاق واسع، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، فأن إقامته الطويلة في أمريكا، وشخصيته الودود وذوقه السليم، ثم نظرته النقية إلى حد ما، جعل نظامه "طريق من طرق الحياة" A Way Of Life مقبولاً من التقاليد الأمريكية في الطب النفسي.

ورأيه في أمراض العصاب أنه فشل في حياة متزنة، وينشأ عادة عن استعداد طبيعي استعجلت الظروف السيئة الصاخبة إبرازه، وهو يعترف أيضاً بوجود أنواع الصراع بين الغرائز الأولية والقيود الاجتماعية، وكلا الاتجاهين من صنع فرويد، ولكن أدلر أضفى عليهما مجالهما في البيئة

---

[٦] كما في فصل التفكك والكبت من الباب السادس. (المؤلف)

الثقافية، وكان هدفه العلاجي هو جعل الانفعالات المضطربة في حالة عادية مطمئنة، وذلك بإعادة صياغة أوجه الطاقة والنشاط وأنواع التحرر الطبيعية.

ومن الواضح أن هذا النظام ينطبق مباشرة على حالات النورستانيا وهي من أكثر الأمراض العصبية انتشاراً، ولكن فرويد يستثنيها من التحليل النفسي بغض النظر عن نصيبها من القلق، وكما قال كثيرون ـ وردده فرويد بشيء من الازدراء ـ فإن المدركات "التحليلية" وما تبرزه العيادات، إنما هو من سمات الأخلاق والتيوتونية المناقضة لمثيلها عند اللاتينيين، ويتساوى ولاء الأمريكيين أو الأنجلو سكسون لمنطق قائم على الذوق السليم والأسس البيولوجية، ولم تكن النتيجة غير متوقعة من أن علم نفس الأعماق، يعكس الاتجاهات الثقافية القومية.

وتوفي أدلر عام ١٩٣٨ وهو في أوج قوته بينما كان يحاضر في أبردين، وقتل أيضاً زميله لنشيط ومترجمه الدكتور "بيران وولف" W. Beran Wolfe في حادث سيارة قبل وفاة أدلر بسنة، وبهذا فأن علم النفس الفردي Individual Psychology ـ وهي تسمية لا معنى لها ـ استمر كاتجاه ولكن بدون قائد.

ولا يقل أدلر عن فرويد، فله أيضاً موضوع مفرد الاتجاه جعل النقائص الخلقية ونتائجها في أمراض العصاب ادعاء تعال لإنقاذ ماء الوجه، ولحجب الإحساس بالنقص، وأضاف "بيران وولف" تفسيره

اللامع بأن الانهيار العصبي ضربة قاضية تحل بالجهاز النفسي العصبي، دبرتها الطبيعة لتتجنب نكبة أكثر اكتمالاً.

فكيف يجتمع هذا التفسير مع الأخر القاتل بأنه جهاز لإنقاذ ماء الوجه، ثم هو عند الفرويديين ذلك البعث البعيد المدى لإحدى عقد الطفولة، أنه أمر عسير الفهم على باحث نفسي اتسمت عقليته بطابع علم الحياة، ومن الواضح أن الباحثين في اللاشعور ممن يحتمل أن يؤكدوا دينهم لفرويد لم يصلوا بعد إلى علاقة معقولة تربط التعاليم الأساسية لعلم النفس بطب أمراضها.

وبالتغلغل الهادئ المتزن للمدركات الفرويدية يبدو في وضوح متزايد أن النتيجتين تتركزان حول طبيعة أمراض العصاب ونظام الدوافع في اللاشعور[٧].

وقد وجه فرويد كل الجهود إلى عقدة الهستريا، وهي في الحقيقة، من بحوث "مسمر" Mesmer إلى "كويه" Coue، تقدم مفتاحاً واحداً للتشوهات النفسية، وأولئك الذين ينظرون إلى أنواع العصاب، وفي مختلف ألوانها، يعتقدون أن المفاتيح متعددة ولا يمكن حشدها في قالب واحد.

---

[٧] انهمك الباحثون النفسيون المتزنون الأكاديميون، باستثناء القليل منهم، انهماكاً تاماً في الأجهزة العقلية مع الاهتمام بالناحية الذهنية، وفي هذا المجال لم يوجه فرويد أي اهتمام، ولكن الأسس الحيوية للحياة النفسية في مجموعها تؤثر في كل اتجاه في القصة، واهمالها كان خطأ فرويدياً خطيراً، ووجهة النظر "الطبيعية" تؤكد السيادة المشتركة للمقومات العضوية النفسية في كياننا العجيب. (المؤلف)

والاتجاه إلى علم نفس الأعماق عن طريق مشكلات الأمراض العصبية النفسية من وحي بصيرة فرويد، وكان من الجائز الوصول إليه عن طريق آخر، لكنه نشأ عن تحدي التحليل النفسي لعلم النفس.

جوزيف جاسترو

الباب الأول

خطط ومواصفات الأسس

ولد التحليل النفسي في مدينة فينا من أكثر من ٧٠ سنة، وجاء وحي فكرته من حالة هستريا عالجها الدكتور "جوزيف بروير" Josef Breuer الذي كان يكبر زميله الدكتور "سيجموند فرويد" بأربع عشرة سنة، وإليه أسند فرويد الفضل إذ قال في لباقة أن أمريكا لم يطلق عليها اسم كولومبوس(٨)، وهو تقدير في موضعه، وستظل الفكرة معروفة بأنها "اكتشاف فرويد" وهي تعني أن ظاهرة جسمانية في مريض بالأعصاب يحتمل أن تكون ذات أصل نفسي من نوع خاص .. كانت عبارة بريئة في مظهرها ولكنها صارت صرخة مدوية تردد صداها في العالم أجمع.

وكانت هذه الفكرة ذاتها هي التي أرسلت فرويد في عام ١٨٨٥ في بعثة طبية إلى باريس ليدرس على جان ماري شاركوه Jean Marie Charcot أكبر علماء الأعصاب في أوروبا، وقد ترجم فرويد بعدئذ بعض كتاباته إلى الألمانية، وفي عيادته شاهد فرويد اختفاء أنواع العجز الهستيري بتأثير التنويم Hypnosis، وقال فرويد بعد ٢٥ سنة أن شاركوه كان غير ميال إلى نظريات علم النفس، بل كان في الواقع يفكر في وسائل أخرى فميز ثلاث مراحل "للتنويم المغناطيسي الأكبر" Le

(٨) اكتشف خرستوفر كولومبس أمريكا ولكنها سميت باسم أمريكو فوسباتشي – المترجم.

Grand Hypnotisme مما تظهر في حالات الهستريا والشلل الهستيري Hystero Epilepsy، وهذه هي ظواهر التخشب Catalepsy، والسبات Lethargy والسير أثناء النوم Somnambulism، ولكل منها أعراض جسمانية معينة.

ورغم المركز الممتاز الذي تمتعت به "مدرسة باريس" وفكرتها هذه، فقد بزتها مدرسة "نانسي" بقيادة برنهيم Bernheim، إذ عزت ظاهرة التنويم المغناطيسي إلى الإيحاء، وبهذا التفسير خطت إلى الأصل النفسي للأعراض الجسمانية الخاصة بالهستريا، ولكنها لم تشر إلى مفتاح يعين لنا الأجهزة المسببة لها، ولم يكن لهذا إلا نتيجة واحدة وهي أن قابلية مرضى "شاركوه" للإيحاء قد ضللته.

والمراحل الثلاث التي أشرنا إليها كانت أموراً مفتعلة ظهرت في باريس لا في "نانسي".

وكان اهتمام فرويد يتجه إلى الأمراض العصبية لا إلى التنويم المغناطيسي، فهو يريد تعليلاً لتلك الأعراض المبهمة التي يكتنفها الغموض في ظهورها واختفائها .. وكان هدفه هو هذا التعليل، لا مجرد مراقبة الحالات وتسجيلها، وكانت أنيته أن يغوص إلى ما تحت السطح ليفسر سر حدوث تلك الأعراض وسبب تباينها في الحالات المختلفة، وفي زيارة ثانية إلى فرنسا جذب هذا البحث الملح فرويد إلى "نانسي" وهناك، وفي سن الثلاثين، كان رائداً منفرداً في معضلة أثبتت أنها مهمة كل عمره.

وكان جانيه Janet يشارك شاركوه في اعتبار حالة الهستريا أنها الميل إلى التسلل إلى حالة تفكك State Dissociate أي انقسام الشعور، وهي حالة عزيت إلى ضعف خلقي في ذلك التكامل المعقد (العصبي النفسي) الذي يؤلف الشخصيات، فإن أكثر الناس يخلقون ذوي شخصيات سوية وإن كانت غير كاملة الانسجام، أما في حالة الهستريا، فإن اضطراباً غريباً يغزو الشخصية، وقال جانيه إن أصل الغزو من "اللاشعور" وتناول في حديثه التوتر النفسي Psychic Tension ولكنه لم يتعمق البحث عن الأسباب والمسببات، واعترف أن عبارته "أفكار لا شعورية" Idee Inconscientes كانت مجرد عبارة مريحة وليست فهماً أو تفسيراً جديداً للحالة، ويقول فرويد "لسنا في حاجة إلى القول أنه بهذا الاعتراف حرم نفسه فضلاً كبيراً بلا مبرر".

ومن العوامل التي ساعدت فرويد في عمله، وجود حالتي الغيبوبة والأعراض الموحى بها نفسياً، مما مكنه من اقتفاء أثر الأعراض التي قدمت مفتاح الموقف، والتي تم التخلص منها في حالة "غفو" Absence أو تفكك خفيف[٩] Mild dissociation.

وعندما تساءل فرويد عن بواعث تصرفات المصابين بالهستريا وأبى أن يقبل تلك الأعراض كما هي، فإن طريقته تضمنت وجهة نظر ديناميكية محركة إلى النفس البشرية، أما بحوث "شاركوه" و"جانيه"

---

[٩] dissociation تفكك، استخدمتها المدرسة الفرنسية للأمراض النفسية لتعبر عن حالة اضطراب الترابط في العقل، وعليها يتوقف بعث الذكريات وهي الحالة العامة التي ينشئها الكبت عند فرويد.(المترجم)

فاقتصرت على الوصف والعرض، والتحليل كما هي الحالة في كل تشخيص، ولكنها لم تعن عناية جدية بتعريف منشأ الأعراض "العيادية" Clinical ومعانيها، وذلك بالرغم من أنهما راقبا تدفق المد وانحساره في الاضطرابات النفسية المختلفة.

وقد بدأ "بروير" البحث لمعرفة أسباب الجزر والمد في الاضطرابات النفسية سواء أكانت منتظمة أم مختلفة، وهو البحث الذي تابعه فرويد، وقد تساءل الباحثان عن هذه الأسباب وهما يلمحان الإجابة التي لم تكن كمد المحيط وجزره وخضوعهما لقوة خارجية في العالم الشمسي، بل كانت تتقرر في الدوافع العميقة وأنواع الكفاح في الكائن الحي نفسه، وهذه هي نواة المعنى التي أطلق عليها "هولت" (Holt) للقارئ الإنجليزي اسم "الرغبة" (Wish) الفرويدية، أما عبارة التفكك (dissociation) فكانت لفظة وصفية، وعنيت حالة تحدث العجز والخدر والشلل.

وقد شاعت هذه الحالة وعرفت فيما بعد بسبب تأثير صدمات انفجارات القنابل في أثناء الحرب، وتبعاً "للرغبة" الديناميكية في عرف فرويد فلابد من وجود سبب "باعث" ويقول "هولت" إن فرويد أعطانا بهذا مفتاحاً لتفسير العقل، فكان أول مفتاح ملائم ظفر به علم النفس إلى اليوم، وعلى الفور انتقلت كل إمكانيات التفسير إلى مجال مختلف، وبدت في الأفق خطة حديثة، ومواصفات جديدة لمقر الحياة النفسية، فلم يعد مجرد بناء صوري بل صار مسكناً حياً.

أول حالة من حالات التحليل النفسي

تحتل الحالة التي عالجها الدكتور "بروير" مركزها في تاريخ علم النفس، فهي أول حالة شخصت بالتحليل النفسي، فقد كانت الفتاة "أنّا" (Anna O.) في الحادية والعشرين من عمرها عندما أصيبت بشلل في ذراعها اليمنى، وبغشاوة على بصرها، وصعوبة في البلع، فضلاً عن مجموعة أخرى من الأعراض المعقدة المحيرة، والهستريا شديدة التقلب كالنساء، وهما من "جنس واحد"، وأعراضها تتغير في الحالات المختلفة، ولكنها تجمع في إلحاح وتشبث بين التقلب والعناد ما دامت مستقرة في مجالها، ثم تأتي أعراض غيرها تزيحها وتحتل مكانها في وقت آخر.

وكان السؤال المحير .. ما سبب هذه الأنواع من العجز بالذات؟ وكان جواب "بروير" و"فرويد" هو أن هذه الأعراض تنشأ بتأثير مواقف شديدة التوتر العاطفي، فإن كانت تصرفات إيجابية من السلوك، ظهرت على هيئة قهر عصابي أو "غمزات"، أو تشنجات، أو إيماءات أو طقوس، أو ألفاظ منطوقة، أما إن كانت عجزاً سلبياً، فإنها قد تظهر على هيئة شلل كاذب، وتخدير منتخب، فهي تفرض نفسها وتعرقل التصرفات العادية وتتدخل فيها، فهي في الواقع ندب خلقتها المواقف المختلفة.

ولقد بدأ فرويد رحلته الاستكشافية عندما قال "دعنا نتعقب أهواء الهستريا إلى مصادرها في المواقف الشخصية الدفينة العاطفية، ونتعقب هذه بدورها إلى دوافعها أينما وجدت".

وكما أقلع كولومبس إلى رحلته المجهولة في سفنه الشراعية الثلاث، أقلع أيضاً فرويد وعدته ثلاثة مبادئ أولها الحتمية Determinism فإن هذه الأعراض لم تأت مصادفة أو بدون معنى، بل كان لها سبب، وسبب نفسي قاهر، وكان ثاني مبادئه "اللاشعور" فإن منشأ الأعراض وأصلها خفي على المريض، ويعمل في الخفاء، أما المبدأ الثالث فهو سبب الكبت Suppresion، وهو أن الذكريات المقصودة كانت غير سارة، أو على الأقل كانت مثقلة بالعواطف المتطاحنة التي أنزلت الدمار بالسلام العادي للعقل.

أما قصة الفتاة "أنّا" فهي أنها كانت تعني بوالدها وهو على فراش مرض طويل ثبت أنه مميت، ونامت مرة وذراعها متدلية على ظهر مقعدها، فلما استيقظت مشدوهة كانت ذراعها مخدرة، فلم تحس بها، ولم تقو على تحريكها، وخيل إليها أن العجز الوقتي عجز حقيقي، وأيا كان إحساسها فإن عواطفها المضطربة ثبتته، وتلك هي حيلة الهستريا التي تحول الآراء النفسية إلى أعراض جسمانية .. اعتقدت أنها أصيبت بالشلل، فحل بها فعلاً، ومرة أرى اغرورقت عيناها بالدموع ومنعتها من رؤية الساعة بوضوح عندما سألها والدها عن الوقت، وكانت الدموع في أول الأمر تؤلف غشاوة على عينيها، ثم استقرت الغشاوة بفعل المخاوف، وكانت مرهقة تنشد الراحة، ولكن شعورها بالواجب كان يدفعها إلى الاستمرار في أدائه، وهي لم تقبل خدر ذراعها والغشاوة على بصرها كما هي في الواقع، وكما هي في الحالة الطبيعية، فصارتا عللاً هسترية ثابتة، وزادت الحالة تفاقماً بازدياد العجز الهستيري.

وكان "بروير" و"فرويد" على علم تام بأن هذه الأعراض تشبه تلك التي تنشأ عن الايحاء المغناطيسي، فهي بطريقة ما من إنتاج الإيحاء الذاتي الملح؛ لأن حالة الاضطراب التي فرضتها استمرت في عملها، ولم تكن هنا كقوة لتلغيها، وقد ظهر بعدئذ في اكتشاف آخر أنها ليست مجرد جروح حديثة بل هي تشبه ثورة إصابات قديمة ترجع إلى اختبارات طفولة مضطربة، أو صلات انفعالية عميقة، وكانت البنية العصبية في هذا الوضع لأنها كانت قابلة للتأثر بمثل هذه الصدمة.

ولم يقتصر نصيب بروير في هذا الكشف على الإيحاء بذلك الأصل النفسي "المعين" وحيل الأعراض الجسمانية، بل امتد إيحاؤه إلى صقل وسيلة تخفيف العلل العضوية النفسية بالعلاج الكلامة Talking cure؛ وهو نوع من المطهرات النفسية Catharsis، وأدرك أيضاً قيمة الانفعالية الشديدة للذاكرة التي تحدث الاضطراب النفسي مما يعرف بالشحنة النفسية (Cathexis)، وبهذه الأمور الثلاثة في الهستريا ساهم "جوزيف بروير" في وضع أولى اللبنات في البيت الذي بناه فرويد، وفيما عدا ذلك فالتحليل النفسي في جملته من إنتاج عقل فرويد وحده.

وعثر بروير على تفسير أعراض مرض "أنّا" بتتبع دلالات الكلمات التي غمغمت بها وهي في حالة الغيبوبة، أي الحالة الثانوية التي أحدثها بها بواسطة التنويم المغناطيسي، وقد كانت حالة ازدادت تعقداً بأحداث هستيرية متسلسلة التطورات، وفيها تدخل الأعراض الجسمانية وأحلام اليقظة، والهلوسة، والواقع أن ذراعها لم يكن "نائماً فحسب نتيجة لتدليه

على ظهر المقعد، بل أن المريضة نفسها حلمت، أن ثعباناً أسود يخيفها، ويهدد والدها، وكانت محاولاتها لإبعاد الثعبان تزيد من شعورها بالعجز، وهذا العذاب نفسه جردها أيضاً من قدرتها على الكلام، وأخيراً تذكرت أغنية إنجليزية مما ينشد للأطفال، ورددتها فظلت مدة طويلة لا تتحدث سوى الإنجليزية، وبإحياء الذاكرة في هذا المشهد أثيرت أعراض مرضها، وعلى ذلك أمكن طردها.

ومثل هذه القصة المتشابكة يمكن تفسيرها على عدة أوجه، ولا سيما في ضوء فروض فرويد الأخيرة، كما سنرى فيما بعد، أما هدفنا الحالي فيكفيه التفسير البسيط، رغم أنه ناقص، وبغير إشارة دقيقة إلى تتابع الأعراض، فالصورة الهستيرية تثير وتتخذ ألواناً شتى كلما استدعى أحد الأعراض من مناطق إفراخه ونموه في اللاشعور.

ولو كانت "الحالة" الأصلية حالة قهر[١٠] Compulsion لظهرت المبادئ متغيرة بعض التغير، وعلى أية حال، فإن التطبيق العام لهذه الحيل على كثير من أنواع العصاب هو الذي يؤلف دستور فرويد القائم على أساس اكتشاف "بروير"[١١]، فإن شحذ الذكريات واستعادتها بواسطة

---

[١٠] القهر أو القسر – حالة تدل على وجود قوة داخلية قاهرة تكره الفرد على أداء عمل ولو ضد إرادته. (المترجم)

[١١] حباً في التركيز على اكتشاف ضروريات التحليل النفسي اختصرت هذه الحالة ولك أن تتبع تفصيلها في محاضرات فرويد بأمريكا (١٩٠٩)، وهي أكثر نضجاً، وفيها اقتبس بعض الأجزاء من تقريره المشترك مع بروير سنة ١٨٩٣ _٩٥ عن الحالة الأصلية التي سبق فحصها من نحو ١٢ سنة (١٨٨٠_ ٨٢)، ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المريضة كانت تعرض الحالة النموذجية للهستيرية المعروفة باسم الغيبوبة التي كانت شديدة إلى درجة تغير شخصيتها، وتبعاً لما لوحظ في حالات الهستيريا فإن هذا يختلف من الذهول المؤقت (Trance) الخفيف إلى فقد المكاني (Disorientation) إلى السبات التام (Stupor).

(المترجم)

التنويم المغناطيسي أدى إلى إظهار قصة مربية قابلتها "أنّا" في طفولتها، وكرهتها إذ أثارت اشمئزازها عندما سمحت لكلبها المدلل بأن يشرب من كوب للأسرة، وبعد أن روت "أنّا" هذه الحادثة، أفاقت من نومها المغناطيسي لتجد كوب ماء على شفتيها فشربت، ولم تعد تشعر بصعوبة في الشرب وشفيت من هذا العارض بعملية التنفيس[١٢]، إذ طرد بعملية تطهير، وهكذا "اكتشف فرويد" أو استنتج، الموقف الأصلي الذي حدث في الطفولة، وظهرت أعراضه في سن الشباب، وهذه الارتباطات البعيدة التي تمدنا بالحلقة المفقودة في علم النفس هي التي قدر لها أن تلعب دوراً هاماً في التحليل النفسي، وهي التي قادت فرويد إلى موضوعه "أن المصابين بالهستيرية يعانون من ذكرياتهم" أي أن "لا شعورهم" لا ينسى.

ويفضل "يونج" تفسيراً آخر، ويونج هذا من مدرسة أخرى للتحليل النفسي، فيرى أن نفس "المسئولية" الهسترية التي جعلت الطفلة "أنّا" تستجيب بعنف للحادثة التي أثارت اشمئزازها قد ثارت ثانية بفعل الاضطراب العام لعواطفها، وأنها في موقفها الأخير قد أحيت عوامل عجز قديمة، أما فرويد فإنه يفسر هذا على أنه ردة Regression لأن نفسية "أنّا" ارتدت إلى إحدى مراحل الطفولة، وهذا تفسير جزئي بالنسبة ليونج، أما الجانب الهام من تفسيره، فهو أنها في حالة عقلية سهلة الغزو

---

[١٢] التنفيس Abreaction اصطلاح يستخدمه المحللون النفسيون ليعني عملية إطلاق انفعال مكبوت بأن يبعثوا في الشعور بالحادث أو الخبرة المسببة للأعراض المرضية. (المترجم)

وقابلة للإصابة، وأن هذه القابلية ظهرت في الطفولة، ثم عاودت الظهور في أوقات إجهاد متأخرة.

ولوحظت أيضاً علة أخرى بعيدة، أو من أصل نفسي غير مباشرة، فإن "أنّا" أثناء أزمتها وهي إلى جوار فراش والدها المريض، حاولت أن تصلي، فلم تتذكر إلا صلاة انجليزية تعلمتها من مربيتها، ومن هذا التحديد المؤقت بالغت نفسيتها الهسترية في الحالة حتى إنها عجزت عن التكلم إلا باللغة الانجليزية، وتقول السجلات أن هذا العجز استمر سنة ونصف سنة، فكانت حالة طريفة دلت على شدة غرابة الهستريا، وعندما كشف "بروير" عن مصدر هذا العجز بتفسيره إلى المريضة والتحدث عنه معها، فإنها استعادت لغة بلادها الألمانية التي كان فقدها إياها غير حقيقي، كفقدها بصرها وحركتها.

ولكن هذا العجز الأخير كان من نوع ممتاز في المنظمة العقلية، وأكرر مرة ثانية بأنه من الميسور العثور على تفسيرات أخرى على هدي التعديلات اليت أدخلت فيما بعد، ومع ذلك فإن الثمرة الأولى لطريقة التحليل النفسي احتوت على بذرة لكل البراعم التالية.

وتنتهي تحليلات فرويد بالقول بأن الحالة السوية العادية للفرد لا تعرف شيئاً عن مصادر الأعراض، فهي تفقد ذكرياتها، ولكن هذه المصادر يمكن تذكرها في التنويم المغناطيسي، أو بأية وسلة تفتح صمام اللاشعور الذي يصطنع أنواع العجز ويختزنها، ويحتمل أن تكون العلاقة بعيدة في صلتها وزمنها، فتعود إلى صدمات الطفولة، وأن مأساة العلل

العصبية النفسية في مجموعها تقبع في جو انفعالي شديد الاضطراب، وإن بعث تلك المصادر الدفينة لأنواع العجز، ثم إطلاقها وتهويتها في أثناء المناقشات الحرة يزيل تلك الأعراض ويبددها، ولقد سجل التحليل النفسي أول حالات نجاحه بشفاء " أنا" فأوحت ألوان العجز الهستيري أول مبادئ التحليل النفسي لذهن فرويد الخصب الذي كان يعمل مستجيباً للوحي الأول الذي هبط على "بروير"، ومن تلك المبادئ نشأ تخطيط الطابق الأرضي للبيت الذي بناه فرويد وحده فلأسباب مختلفة كان "بروير" غير ميال للمزيد في تتبع هذه المسألة.

أضرار الهستريا

كان من الجائز أن لا نسمع مطلقاً عن اسم "فرويد" كمؤسس لحركة خطيرة الشأن لولا تفسيره المبتكر للأضرار التي تنزلها الهستريا بوظائف الأعضاء، فإن طبيعة تلك المجموعة الغريبة من الاضطرابات النفسية صارت جزءاً من قصة فرويد، فالعلل الهستيرية تظهر كأعراض حقيقية في قوتها المزعجة، ومع ذلك فهي وهمية من حيث أصلها العضوي، وهي عجز غير منتحل كما في حالات التمارض والعلل الوهمية في الجنسين، وهي كذلك غير ناشئة عن إصابة أو علة داخلية، وبعبارة صريحة هي حالة مريض بأعصابه، وفي الوقت نفسه هو غير مريض بها البتة؛ لأن خلاياه العصبية سليمة وغير معتلة، ومن هذا الوضع الشاذ كان من الضروري البحث عن سبب آخر للعلة، وجاء الحل المقترح، وأعلن

لأول مرة في عام ١٨٩٢ وهو عام "١٤٩٢"[١٣] من العهد الفرويدي.

وكانت سمة الوهمية في التنويم المغناطيسي، وأعراض الهستريا معروفة قبل فرويد، وكان غموضها المغلق من الظواهر القديمة، وقد ذاع أمرها ووصل إلى ذروته في حالات "صدمات القنابل" وأضرارها في الحرب؛ فبها كان الجنود الأصحاء الأقوياء وهم في عنفوان شبابهم يصابون فجأة بالعمى دون خلل فعلي في الجهاز البصري، أو يحل بهم الصمم رغم أن الجهاز السمعي سليم لم يمس، أو يصابون بالشلل في طرف من أطرافهم رغم أن جهازهم العصبي سليم من أية علة، وكل هذه الأعراض نشأت من عوامل نفسية ذات تأثير عضوي Psychogenic، وهي عبارة يمكن تطبيقها على أي تأثير يقع على أعضاء الكائن الحي بفعل آرائه ومشاعره.

وكل الإيحاءات نفسية، ولكن إجراءات هذه العملية تسير في عدة مستويات، فمن الجائز أن تكون وهماً خارجياً ومؤقتاً كحالة الجنود الذين رأوا الملائكة في مدينة "مونز"، أو الأناس المدنيين الذين شاهدوا جنوداً روسيين على الأراضي البريطانية، وهي أكثر من ذلك شدة وأبعد أثراً في حالة صدمات القنابل، وهي تهاجم أعماق المجموعة النفسية التي نسميها بالحالة السوية للعقل.

ولقد عرف علاج الهستيريا وإصاباتها منذ القدم، وسمعنا عنه

---

[١٣] السنة التي بدأ فيها كرستوفر كولمبوس رحلته لاكتشاف أمريكا إذا أقلع بثلاث سفن من ميناء "بالوس" الإسبانية في ١٣ أغسطس سنة ١٤٩٢، فإن المؤلف يشبه "فرويد" بكولومبوس. (المترجم)

عندما استعاد بعضهم بصره بلمسة شافية، أو زال عنه شلله، وترك عكازه الذي يتوكأ عليه بعد زيارة أحد الأضرحة، ومن المعروف أن الإصابات المفاجئة يحتمل أن تحدث من خلل في الأعصاب نفسها، ولكن كثيراً منها يحدث نتيجة لصدمة انفعالية، وهذه الحالات تشفى أيضاً بصدمة انفعالية مماثلة، والعلاج الذهني، أو طرد "العفريت" ـوهو الخوف في الغالبـ يحدث عن طريق الجهاز "النفسي المؤثر على الأعضاء" في أوضاع شديدة الصلة بالإحساس الجسماني، ومن الجائز أيضاً أن يزول العجز أو الضرر بزوال سببه، فكثير من الجنود الذين أصيبوا بصدمات القنابل شوا منها بإعلان الهدنة، وليس معنى هذا أن الجهاز الوظائفي الفسيولوجي كان غير متأثر بالناحية النفسية، فهذا التأثر جائز، ولكننا في لوقت الحالي لا نعرف ماهر، ومن واجبنا أن نستمر في طريقنا مستغلين أفضل ما لدينا من معلومات.

وكان "بروير" و"فرويد" يوجهان اهتمامهما إلى مسألتي كيفية ظهور الأعراض، وكيفية إزالتها، وكانا يسعيان إلى معرفة وسائل الشفاء لا عن طريق المعجزات أو الإيحاءات العنيفة للتنويم المغناطيسي، بل بوسائل طبيعية يمكن السيطرة عليها في علاج الأمراض النفسية Psychotherapy، وقد وجدوا الحل في العلاج الكلامي والتنفيس، أو بعبارة أكثر تعميماً في التطهير النفسي، فإن سبر الغور، أو الفحص بالتحليل النفسي، كالاعتراف الديني ليس إلا عملية تطهير نفسية، ووسيلة لاستخراج المزعجات من نظام الفرد.

وقادت البصيرة "بروير" و"فرويد" إلى تمييز ما وراء الموقف المؤدي إلى الأعراض، وهو الضغط الانفعالي، أو بعبارة أدق الصراع Conflict، وهذا الصراع الداخلي هو الذي خلق العلة الهسترية، أما الموقف فلم يكن إلا مسرحاً لعب عليه العراك دوره، فالانفعال كان البارود، والموقف كان الشرارة التي فجرته، وكان الصراع عند الفتاة "أنا" بين الاجهاد والواجب الأبوي، وكان في الجنود بين واجب الولاء وغريزة حماية الذات التي عبر عنها بالخوف، وهو شيء يهاجم الدوافع الحيوية، ويحتمل أن يعجل بإظهار علل الهستريا، ففي جروح الحياة والأزمات الانفعالية لا يوجد فارق جوهري بين متاعب السلام ومحن الحرب.

وقبل أن نترك الحديث عن هذا اللون الأساسي من أعراض العصاب التي أوحت بالفكرة التي حفزت إلى بدء العمل الذي أدى إلى النظام الذي أعد تخطيطات البيت الذي بناه "فرويد" –قبل أن نترك هذا الحديث يجب أن نلاحظ أن العلاقة بين أحد الأعراض والس تكون قريبة في تلك اللحظات بسبب العلاقة بين العارض والموقف، وسنرى كيف يحتمل أن تكون هذه العلاقة سعيدة بشكل محير، بل أن بعض المتحمسين من أصحاب النظريات يجعلونها بعيدة جداً، وغير مباشرة، وافتراضية حتى أنها لتفقد ما يبرر عملها.

ومن حالات الأزمات البسيطة حالة امرأة تعمل بغرفة السيدات بإحدى محطات السكة الحديد الصاخبة، وقد أصيبت هذه العاملة بصمم هستري، وانهارت بتأثير عوامل مهنتها المهلكة للأعصاب،

وانفجار القنابل كموقف من الجائز أن يصيب الفرد بالصمم، أو بالعمى أو بأي أنواع العجز، أما الضوضاء والصخب، فيحتمل أن تنتج الصمم فقط، والعلة الناشئة إما أن تكون ملحة دائمة، أو مجرد هرب من أزمة أخرى، وربما تكون كلتيهما معاً، والأعراض ومناسبات إظهارها ذات علاقة سببية من نوع ما، على أنه توجد دائماً اضطرابات انفعالية عميقة، وإذا احتفظنا بهدوئنا، فلن نصاب بالصدمة، هذا يمثل جزءاً حسب من "اكتشاف" فرويد، وهذا التشخيص يكشف أولى طبقات اللاشعور، واتجاه علم النفس إلى هذه الناحية سيجعله دائم الارتباط بالتحليل النفسي.

ومن السهل المساير المتسلسل التاريخي، أن نقدم وجهة نظر فرويد على أنها تمثل عمليات الأمراض النفسية ذات التأثير العضوي على هدى الصور العيادية للهستريا، وهناك عدة أنواع أخرى من العلل العصبية، وهي تختلف في وصفها، وتبويبها وفقاً لفهم أطباء نفسية، وأنها يمكن علاجها بالوسائل المتبعة في علاج علل الهستريا.

ومن المؤلم أن الخبرة بالحياة الحديثة دلت على أن عدداً كبيراً من الناس العاديين في الغالب يعانون من صراع الموقف، وبغية إنقاذهم تتجه المهمة الأساسية لطب النفس، وما اتضحت معالمه في حالات الهستريا سرى على حالات العصاب بصفة عامة، وعلى ذلك فالصراع، أياً كانت طبيعته صار مركز الاهتمام، أما مسألة نشوء هذه العلل العصبية من ذلك الصراع فمسألة يحتمل أن يحتفظ بها إلى حين.

ولتوضيح عرض الموضوع ركزت اهتمامي في علل الهستريا، ويتساوى معها في الأهمية كأساس للتحليل النفسي "القهر العصابي" Compulsion Neurosis الذي يفرض طقوساً شاقة متكررة على المريض، وهو ليس عجزاً ناشئاً عن قصور في أداء الوظائ العادية، بل هو غزو تشنه دوافع دخيلة على السلوك العادي، وهو أيضاً من اللاشعور، ولكنه إجباري في فرض طقوس مجهدة، ومتكررة لا تتيح للفرد استعادة السلام إلى عقله فترة إلا إذا طردها منه.

ومشكلة التحليل النفسي هي هذا بعينه، فلماذا هذه الإجباريات والطقوس؟ والحل واحد أيضاً، وهو ثبوت القلق العميق المتأصل الذي يحتمل أن يرجع إلى عهد الطفولة، والذي تضخم رمزياً عن طريق مجموعة من الآراء الانفعالية العميقة، وهي في الغالب ذات صلة أو صبغة جنسية، والعرض التالي سيعطينا فرصة نسرد يها حالات "القهر العصابي"، وطريقة تفسيرها بالتحليل النفسي، وهي بيانات لا تقل أهمية عن الخلل الهستيري في البناء الفرويدي.

وألوان التناقض غير الحقيقي هي الظاهرة المشتركة في أعراض الأمراض العصبية، وهي الهدف الذي يعمل التحليل النفسي لاكتشافه وإطلاقه، وهي في أحد مظاهرها تفرض نفسها سواء أكان ظهورها كخلل أم كعجز أو قهر أو قلق أو رهبة أو أي عقبة أخرى مما يعرقل السير الطبيعي للحياة، وأكثر الأسماء شيوعاً وشمولاً في هذا السبيل هو الهستريا، فإن وجدت علامات مميزة فإن أنواع الأعراض المختلة يجب

أن لا تجمع في صعيد واحد بغير تمييز، فهي أصلاً من الهستريا ولكن دعنا نتجاوز هذا الموضوع ونضيف مثلاً مسلياً متحرراً من أي القيود المباشرة للفرويدية.

وهي قصة شابة تعاني من أحد الأعراض الشائعة للهستيريا، فتشعر بكتلة ما ببلعومها، تتحرك إلى أعلى، وإلى أسفل محدثة حركات بلع عقيمة، وأفتت بعدئذ بأن الكتلة انتقلت إلى معدتها، وأنها واثقة من أنها ضفدعة، وأجريت لها عملية جراحية وهمية، وأحضرت ضفدعة حقيقية حية، ووضعت في زجاجة، ولما أفاقت عرضت عليها لتشاهدها.

واعتقدت أن ضفدعتها أخرجت منها بجراحة، وإن ما أحسته كان له ما يبرره، ومضت فترة وهي تعيش في سلام إلى أن زارت الطبيب، وأدعت بأنها تحس بالضفدعة في معدتها مرة ثانية، وأكد لها الطبيب أن الضفدعة أزيلت منها، وأنها قد شاهدتها بعينيها، ولكن السيدة أجابته، هذا حق يا سيدي الطبيب، ولكن في معدتي ضفدعة أخرى لأن الأولى كانت أنثى وولدت.

ومن الجائز أن تكون هذه القصة مشكوك في صحتها، ولكنها ظهرت في تقرير طبي، كما تصلح لتوضيح أن الهستريا يحتمل أن تظهر في أي مستوى من مستويات الذكاء، وأن كثيراً من أعراضها ليس من الطراز المعقد، ولكنه سطحي ومن "الشعور"، وإجراءات التحليل النفسي ليست دائماً ضرورية، فليست كل أنواع الهستريا ناشئة من اللاشعور في مستواه العميق، وهذه تذكرة هامة للحكم على صلاحية النظرية وسلامة

تفسيراتها، وقد شغلت الهستريا في أعراضها وأجهزتها فرويد، ومنها انتقل إلى التعميم، وتناول جميع أنواع العلاقات على اختلاف صورها وحالاتها في التصرفات البشرية سواء أكانت سوية أم شاذة، ومن ثم صار التحليل النفسي أكثر من نظرية تفسر وتعالج الارتباكات العصبية ذات الطابع الهستري، فالقصة هكذا بدأت، ولكنها امتدت إلى عدة فصول غريبة تشعبت في علم نفس الأعماق.

في الطريق إلى العقدة

لست أنوي أن أضل ولا أن أضلل القارئ في كهوف فرويد ومتاهاته الغامضة، إلا إذا أكرهت، وسأتبع الطريق "العيادي" المباشر، وما يتفرع منه، وأنا أضع نصب عيني الهدف الثابت المكين، وهو تفسير ظواهر العقل الهامة، ومنها الناحية الشاذة، وفي الوقت المناسب سنبحث الموضوعات النفسية التي يبدو لنا أن هذه الظواهر تتطلبها أو تبررها، فأن التحليل النفسي في نموه عرض مزيجاً عالمياً من عناصر الشخصية، ووضع تسيراً لأعمال الناس في حياتهم، والشراك التي تعترض النفوس في عيادة، ولعله مولد سيء الطالع بالنسبة لمستقبل عمل سوي، وفي نشأة فرويد ظهرت الدراسات العيادية كمجال للتطبيقات العامة على العقول العادية، وكانت مدركاته عن اللاشعور، والكبت في فجواته الدفينة، ثم العوامل المقررة لها، تعرف على أنها تعمل باستمرار في ألوان الحياة العادية، أما أنواع الخلل الهستري، والعلل العصابية القهرية، فاعتبرها ظواهر شاذة تلت النظر، ومن صنع نفس الأجهزة المعتلة وفقاً

لاستعداد التكوين العصبي للمريض، والمعالج في عيادته إنما يوجه اهتمامه إلى العلاج، وأول خطواته هو التشخيص الصحيح للعلة، وكان العنصر الجديد في تشخيص فرويد هو تمييزه "للحيل" النفسية، وعبر عنها بلفظ "الموقف"[١٤] Situation من حيث المستوى السطحي، وبالمناسبة أو السبب المباشر، وسماه "الباعث"[١٥] Motive، ومن حيث المستوى العميق للدوافع الحيوية، وما ينشأ عنها من صلات شخصية.

وبينما كانت عمليته في البناء سائرة في طريقها، فإن شخصية فرويد كباحث نفسي كانت تشترك في التوجيه مع شخصيته كطبيب، وما لبثت الشخصية الأولى أن تولت القيادة، وقدمت إجراءات العلاج أدلة لمزيد من الفهم، ووضح التنويم المغناطيسي أن القبضة الخانقة للهستريا، والعلل المتعلقة بها يمكن أن يفرج عنها بفك أذرع أخطبوط "اللاشعور"، وكانت إجراءات التنويم المغناطيسي غير مؤكدة، كما حددت الصلة بين الطبيب والمريض، وقد بحث "بروير" و"فرويد" فوجدا أن الإطلاق الفعال لأسرار "اللاشعور" هو في إغراء المرضى على اتخاذ مواق سلبية، بأن يتحدثوا عن أنفسهم بحرية، وفي جو من الصداقة الوطيدة، وكان هذا هو "علاج الكلام"، أو "تنظيف المدخنة" أو تنظيف بيت النفس أو تطهيره، وكان هذا "الاكتشاف" الذي يقضي بأن أعراض المرض يمكن إزالتها بالكلام المطلق من أكبر المفاجئات لهما، وآثار مسألة هامة لها

[١٤] الموقف هو الحالة الموضوعية المثيرة للون من المؤثرات وله يستجيب الفرد ويعمل.

[١٥] الباعث هو عامل يقرر توجيه مسلك الفرد إلى هدف معين، ومن الجائزان يكون من الشعور أو اللاشعور. (المترجم)

وزنها وأهميتها في الاعتبارات المقبلة، فلماذا تشفى حالة الشعور؟ ولماذا يعاون الحديث عن الذات على الشفاء؟ ولماذا كان الاعتراف ميداً للنفس؟

وفي عملية التطهير التي قام بها "بروير" نرى المرحلة الأولى لطريقة الاعتراف الطويل الأمد التي تؤيد اليوم مهنة التحليل النفسي، وكان هذا الفحص في يد فرويد جهاز غوص كشف التيارات الخفية التي أدت إلى عقبات عصبية تنم عن صراع مما يمكن أن نسميه "عقدة"، فإذا ما اكتشفنا هذه العقدة، فإن مجرد الاعتراف بها، وإدراك الحاجة إلى حلها، ثم "تنفيسها" بما يملكه المحلل من البراعة في الأقناع والقدرة، إذا تم هذا، فإن مجرى إطلاق سراح المريض من أسر علته يتقرر، ويمهد الطريق أمامه ليتلاءم من جديد مع ظروفه، ويستعيد حالته السوية، وكل هذا جائز للأفراد العاديين كما هو جائز لحالات مرضى الأعصاب.

ومن الخير أن نشير إلى أن أولى حالات التحليل النفسي لم تحتو إلا على إيحاء بسيط للجوانب الجوهرية في قصة فرويد عندما صقلت، وبخاصة مسألة الجنس وسيادته، فلم يكن فيها سوى أكثر قليلاً من فتاة بارة مخلصة تندب فقد والدها، ولكنها عبرت عن شعورها بوسائل هسترية، ولم يوجد أيضاً عامل "جنسي" في صدمات القنابل؛ بل كان هناك هجوم على الدوافع الأساسية للحياة سواء أكانت أصلية أم مكتسبة، ومن الواضح كل الوضوح أن الجنس يحتل مركزاً فريداً ممتازاً، ويسيطر على الدوافع الحيوية في مجاله، فهو منبع خصب للصراع

العنيف، وبمرور الزمن وزيادة الخبرة العيادية صارت علل الهستريا نوعاً واحداً من الحالات التي يتناولها التحليل النفسي، وأضيفت إليها علل الحصار العصبي[١٦] Anexiety Neuroses، والقهر العصابي Compulsion Neuroses والوساوس[١٧] Obsessions فضلاً عن حالات عدم الاستقرار، والتردد، والقلق، وعدم القدرة على الانسجام التي عرضت عليه بكثر وسادت الموقف.

وبالبحث المطلق في التاريخ الشخصي للحالات، وبالجلسات الطويلة في أحاديث مستفيضة انحسر القناع عن العلل العصبية، وظهر أن منشأها صراع في الموقف، وبتعقب هذا الصراع إلى منابعه أفصح عن عقبات في العلاقات الجنسية، وهي كثيراً ما ترجع إلى صدمات حدثت في الطفولة، وهذه الاكتشافات بدورها إنما هي مراحل في الطريق إلى "اكتشاف" العقدة النفسية".

وننقل الآن إلى موضوع "القهر العصابي" وهو علة لا تفرض على ضحيتها عجزاً أو حرماناً من بعض وظائف الأعضاء، ولكنها تفرض عليها ضروباً من السلوك الدخيلة كالخلجات، والدوافع المتقلبة، والوساوس التي تبعث الاضطراب في الانسجام العادي لتصرفات الفرد، وتؤثر عليه كما لو كانت عجزاً في الحواس أو الأطراف، وهناك أيضاً القلق

---

[١٦] الحصار العصبي – وهي عقدة عاطفية مزمنة مصحوبة بالرهبة والخوف، وأعراضها الاضطراب العقلي والعصبي.

[١٧] الوسواس – اضطراب في وظائف الأعضاء من سماته إداء طقوس أو عمليات معينة كغسل الأيدي، والتأكد من غلق الأبواب بطريقة شاذة، وهدفه تهدئة الصراع في اللاشعور ومن سماته الريبة في كل شيء. (المترجم)

العصابي، والخوف الملح الدائم، والشك المقيم، والتردد وعدم الاستقرار والشعور بالفشل، وفقدان التحمس لشيء ما، والارهاق ولحظات الذعر، ويتخللها في بعض الأحيان علامات وأعراض جسمانية.

كل هذه الحالات تمنع ضحيتها من الاشتغال بأية حرفة عادية هادئة، أو أي عمل يسير في انسجام ولين، فهي تقلب دولاب عجلة الحياة، وتربك العمل، فما هي المناسبات أو البواعث التي تطلقها؟ ولماذا تتخذ هذه المظاهر بالذات؟ ولماذا كانت قلقاً أو قهراً أكثر مما هي عجزاً؟.

ويمكننا القول أن مثل هذه الأعراض تحدث لمن توافر في بنيتهم الاستعداد لها، فكثير من الناس يتعرضون لأمثال هذه الصدمات، ومع ذلك لا يصابون بها، ونعود فنكرر أن هذه "الحيل" نفسها تعمل في الاستجابة السوية، وعند الأفراد العاديين الذين تعثرون على الحل الموفق، أو يجدون أنفسهم يعانون قليلاً من المتاعب وعدم التكيف، فيتألمون، ولكنهم يظلون غير عاجزين.

والمفاتيح التي وجدت في الشواذ تنفع العاديين، فإن التحليل النفسي يقدم علم نفس "أعماق" للجميع، كما يقدم علاجاً للمعتلين والمقعدين نفسياً.

وتتبع علل الهستريا أو القهر العصابي على نمط فرويد، إنما هو رحلة في الطرق الأصلية أو الفرعية المؤدية إلى الجنس، وسندرس

مبررات هذه الرحلة فيما بعد، أما الآن ففي غير عناء نقرأ الشعار على الباب "اهجروا كل أمل في الصمت يأمن تدخلون هنا"، ومن ثم نبدأ:

الأعراض: فتاة عصبية في التاسعة عشر من عمرها، برمة بالحياة، ومكتئبة، كثيرة التردد، ومصابة بالرهبة من الأماكن المفتوحة (Agrophobia) وبقهر عصابي يدفعها إلى إتباع طقوس قاسية لا تلين قبل النوم، وهي ليست الإجراءات البسيطة التي نلاحظها، ولكنها سلسلة طويلة من الترتيبات الوهمية المصطنعة التي لم تستطع الفتاة تقديم تفسير مقبول لها، ولكن أداؤها ضروري لإحلال السلام في عقلها، فهي تريد الهدوء، وللظفر به كانت تقف الساعة الكبيرة عن العمل، وتبعد ساعة يدها، وتنقل أواني الزينة من مكانها، وتضعها على المكتب خشية أن تسقط، وتتحطم وتحدث صوتاً يزعجها رغم أنها تسلم بأن هذا غير محتمل الحدوث، وهي تصر على أن يظل الباب الفاصل بين غرفتها وغرفة نوم والديها نصف مفتوح، أما من حيث طقوس الفراش نفسه، فتحتم أن لا تمس الوسادة الكبيرة عند الرأس القائم الخشبي للسرير، أما وسادة الرأس الصغيرة، فيجب أن توضع منحرفة، وهذه الطقوس وغيرها من التفاصيل التافهة تتكرر مرات للتأكد من أنها في وضعها الصحيح المطلوب، وهذه الاحتياطات العصابية قد تستغرق ساعة أو ساعتين حتى تتم على أحسن حال، فلا تجرؤ هي أو والدها على الرقاد قبل اكتمالها.

وبعد شهور من التحليل، والاعتراضات الدائمة والعناد من جانب المريضة، تمكن فرويد من إقناعها من صحة تفسيره وفهمه لأعراض

علتها، فاستطاع أن يشفيها من "قهرها العصابي" فأقلعت عن أداء طقوس نومها.

التفسير: أفهمت المريضة أن الساعة الكبيرة ترمز عندها إلى الأعضاء التناسلية في الأنثى، ولا سيما أن دقاتها المميزة للوقت تشبه انتظام الدورة الشهرية عند المرأة، كما أن نبضها (للساعة) يقارن بالاختلاجات الجنسية في حالة التهيج، أما "القصريات والزهريات"، فهي كغيرها من الأوعية رموز نسائية، "واتخاذ الاحتياطات لعدم كسرها هو جزء من عقدة نفسية خاصة بالعذارى، وللتأكد روى فرويد عادة كسر طبق في حفلات الخطبة والزفاف، وهي عادة ترمز إلى تنازل كل من المدعوين عن أي إدعاء قبل العروس.

ومن ذكريات المريضة أيضاً، أنها عندما كانت طفلة انزلقت قدمها، فسقطت وكسرت طبقاً زجاجياً كان في يدها، وأصيب أصبعها، وسال دمها، وقد اقترن هذا الحادث بنزيف رحمي، "وفي أحد الأيام ذكرت الفكرة الأساسية عن طقوس وسادتها، فقالت إن الوسادة كانت دائماً تظهر أمامها كامرأة، وأن الظهر المنتصب للسرسر كان رجلاً، وبطريقة سحرية أرادت أن تبعد الرجل عن المرأة ... وهما والداها.

وفي السنوات الأولى كانت مصابة بالخوف سواء أكان حقيقياً أم مفتعلاً، فأقنعت والديها بأن يتركا الباب الفاصل بين غرفتها وغرفتهما مفتوحاً، وفي بعض الأحيان كانت تنام بين والديها، وبهذا أيضاً حلت محل أمها، أما الوضع المنحرف للوسادة الصغيرة، ففسر كرمز إناثي

إضافي "وستقول أنها آراء فجة انطلقت على غير هدى في رأس عذراء، وأنا أعترف بهذا، ولكن لا تنسى أنني لم أخلقها، بل فسرتها فقط".

والأوهام التي اقترنت بحوادث الطفولة التي تذكرتها في التحليل مسئولة عن اصطناع الطقوس وتفخيمها، وكلها تحدث في "اللاشعور"، ومن المنابغ العميقة للأوهام والخيالات "هيامها بوالدها، ويرجع عهده إلى أوائل الطفولة، وفي الوقت نفسه عدم ميلها إلى أمها، هذا هو تفسير التحليل النفسي لحالة "القهر العصابي، واحتفظ الآن بالتعليق فإن الهدف العاجل هو أن أضع أمام القارئ كيف يتناول التعليل الفرويدي مسائل الأعراض والشرح.

والحالة الثانية التي اختارها فرويد ليشرح لسامعيه طبيعة حالة "القهر العصابي"، وفك طلاسمها بالتحليل النفسي، هي حالة تسير في النهج نفسه.

"سيدة في نحو الثلاثين من عمرها، وتعاني أقسى أنواع القهر العصابي، وكان من الجائز أن أساعدها لولا أن الحظ دمر عملي .... ففي كل يوم تقريباً، وبينما تكون المريضة مع غيرها، فإنها ترتكب الأعمال الإجبارية الغريبة التالية .. فتركض ن غرفة إلى الغرفة المجاورة لها، وتستدعي خادمتها، وتصدر إليها أمراً تافهاً، ثم تصرفها وتعود إلى الغرفة الأول"، ويصر فرويد على أن تفسير الحالة جاء بغير مساعدته أو إيحائه، "وعندما سئلت عن سبب ارتكابها لهذا العمل الذي لا معنى له فإنها أجابت بأنها لا تعرف".

التفسير: "وفي أحد الأيام رأت النور فجأة بعد أن نجحت في التغلب على شك أخلاقي خطير عندها" ... "فمن أمثر من عشرة سنوات مضت تزوجت من رجل أكبر منها، وقد ثبت أنه عنين في لية الزفاف، ولكنه في الصباح صب حبراً أحمر على أغطية الفراش وهو يقول في حدة "أنها تكفي لإرسال الخجل في الإنسان أمام الخادمة، التي تعنى بتنظيم الفراش".

وقادتني المريضة إلى المنضدة في الغرفة المجاورة لأكتشف بقعة كبيرة على مفرشها، وقالت أيضاً أنها وضعت نفسها في مكان معين حتى لا تخطئ الخادمة في رؤية البقعة .."، فهي تتقمص شخصية نفسها كما لو كانت مع زوجها الذي كان يكرر التنقل بين غرفته وغرفتها في تلك الليلة، حقيقة أنها كانت تحميه أمام الناس بينما كانت تطلب الطلاق.

ويقول فرويد لمستعميه "وأكون شاكراً لو أمعنتم النظر في هذه الحالة، فإن مثلها، ومضمونها ليس كالعادة من مخلفات فترة الطفولة، بل هي من مخلفات الشباب، وكل الاعتراضات التي يوجهها النقاد عادة إلى تفسيرنا للأعراض تخفق في هذه الحالة، ولسنا دائماً حسنو الحظ"، ثم يفسر أن الطقوس استبدلت الفراش وأغطيته لتحتل مكانهما المنضدة ومفرشها، فالفراش ومائدة الطعام هما عماد الزواج، ولهذا كان من الممكن أن تمثل المنضدة الفراش، أما البقعة "فلتحمي زوجها من الهمسات المشينة"، وبما أننا نقتصر الآن على عرض وسائل فرويد العيادية فإننا نؤجل تعليقنا.

ونستأنف الرحلة، فما زال أمامنا أن نفحص الوساوس واضطرابات الشك، والأمور المزعجة أياً كان سببها، فهي من نفس طراز العقبات المعطلة للحالة الطبيعية، والخلاص منها هو أسمى الآمال، وقد قدم التحليل النفسي الإسعافات الأولى بتتبع الأعراض المحيرة إلى أسباب خفية، واعتمد على كلام فرويد مرة أخرى لأعطي القارئ فرصة الاتصال المباشر بالمستند الأصلي للتحليل النفسي.

"عاد ضابط شاب إلى منزله في أجازه قصيرة، وسألني أن أرى حماته التي برغم الأحوال السعيدة التي تعيش فيها، فإنها عكرت صفو حياتها، ونغصت معيشة من حولها بفكرة لا معنى لها"، وظهر أن المريضة سيدة لطيفة المعشر في الثالثة والخمسين من عمرها، ومتزوجة من ثلاثين سنة من زوج عطوف مهذب، فلم يحدث بينهما أي خصام وأنجبا طفلين تزوجا بدورهما، ومن سنة وصلتها رسالة من مجهول "تتهم زوجها الطبيب بعلاقات غرامية بشابة أخرى، وآمنت بالرسالة، ومنذ ذلك الحين دمرت حياتها"، ويظهر أن هذه السيدة الوقور كانت تتبع عادة غير محترمة، وهي الثرثرة مع خادمتها، وفي إحدى المرات كانتا تتحدثان عن رجل كهل كان يتردد على المنزل، وهو معروف بأنه لم يعش مع زوجته، بل بحث عن السلوى مع خليلته، وفي لحظة عدم تفكير أفلتت ملاحظة من لسان المريضة، فقالت "أنه من البشع أن أعرف مثل هذا عن زوجي الطيب".

وفي اليوم التالي وصلت الرسالة، ورغم أن خطها كان مفتعلاً، فإنها ارتابت في أنها بخط خادمتها لأنها كانت تحمل ضغناً "للمرأة المشار إليها في هذه المسألة؛ ولأنها بدأت مثلها من مستوى واحد في الحياة، ولكن الأخرى تقدمت اجتماعياً، وأصبح مخدومها في المصنع يأتمنها، وهذا المخدوم هو رب المنزل نفسه، وطردت الخادمة من الأسرة، ورغم اقتناع المريضة بأن اتهامها لا يستند إلى أي أساس، فإنها استمرت مضطربة العاطفة، وزادت العلة ولم تخف، وبعد ساعتين من التحليل وصلت إلى حد لم تجد معه ما تقول، وكانت مستعدة لإنهاء عملية التحليل، وأعلنت أنها تشعر بأنها قد شفيت، وأنها واثقة من أن "وسواسها" سيختفي.

وعلى أية حال، ففي هاتين الساعتين أفلتت منها بعض الملحوظات التي أتاحت تفسير الحالة، وجعلتها في الواقع حالة لا مجال فيها للجدل، وهذا التفسير يلقي ضوءً قوياً على أصل وساوسها وهي الغيرة، فقد كانت هي نفسها مفتونة بشاب صغير هو نفس زوج ابنتها الذي "ألح عليها حتى قدمت في طلب مشورتي الطبية، وهي لم تدرك أي شيء عن هذه الفتنة، أو لعلها عرفت القليل من أمرها، فإن الصلة القائمة فعلاً يسرت إخفاء افتتانها تحت ستار الود غير الضار.

ومن تجاربنا الطويلة لا يتعذر علينا أن نتلمس طريقنا لفهم الحياة النفسية لهذه السيدة الأمينة، والأم البارة، فإن هذا الافتتان كان شديد الشذوذ ومن المستحيلات ولا يمكن السماح له بالظهور في دائرة

الشعور، ولكنه استمر قائماً، وبغير شعور ظل يواصل ضغطه الثقيل على النفس، فلم يعد هناك مفر من حدوث شيء ...

لا مفر من العثور على مخرج، وعمل جهاز النقل الذي يشترك دائماً في نشوء وساوس الغيرة، فقدم أقرب مخفف، فلو لم تكن هي المرأة العجوز متيمة بحب شاب بل كان زوجها هو الغارق في غرام فتاة لتحررت من صوت ضميرها الذي يتهمها بالخيانة، وهكذا كان وهم خيانة زوجها عاملاً يبرد جرحها الملتهب".

وليحمل هذا التفسير أي قرار يشاء فبهذه الأمثلة للتشخيص والعلاج تنتهي المسألة، وبمزيد من ضبط النفس احتفظ بتعليقي، وقبل أن أختم موضوع أعراض القهر العصابي، إنه يحسن أن نوضح أنها يحتمل أن تكون عللاً ملحة بسيطة، ومثال ذلك اختلاجات صدمات الجنود، والحالة التالية ذات مغزى.

وهي لفتاة في السادسة عشرة من عمرها، وتتعرض لتشنجات عنيفة في عضلات الذراع والرقبة، وقد أمكن إرجاع هذه التشنجات إلى إجهادها الجنوني الناشئ من الغطس تحت الماء في أثناء سباحتها في جدول ماء، وفجأة أذهلها ظهور رجل على جانب الطريق، ولم تعالج هذه الحالة بالتنويم المغناطيسي، ولا بالتحليل ولكن عولجت بلون لبق من الإيحاء، فقد أعطيت المريضة جرعة من الأثير ثم ربط ذراعها، لما استعادت وعيها أكدوا لها أنهم أجروا لها جراحة ناجحة.

وليس من الميسور معرفة مدى وعيها بأصل حركاتها القهرية التي اعتبرها زملاؤها حركات مصطنعة، وعلى أية حال فإن الجراحة الوهمية بررت موقفها بأن مرضها كان حقيقياً، ومن ثم شفيت، وكان من الجائز أن يوصل التحليل النفسي إلى النتيجة نفسها، ولكنه لم يكن ضرورياً.

وأعراض التحليل النفسي يحتمل أن تظهر "الاثباتات" Fixations أو العناد والتشبث، أو الوساوس، أو العجز بسبب المخاوف والصدمات والقلق، والعجز الذي يكون قوام العصاب يحتمل أن يكون مفروضاً أو مقبولاً بدرجات متفاوتة، وفي بعض الأحيان يسعى إليه، فإن كان الأخير، فإنه يصير حلاً لصراع "بالهرب إلى مرض"، وهي عبارة استخدمها فرويد وأتباعه بكثرة.

وفي ضوء مثل هذه الحالات أعلن فرويد أن الأمراض العصبية تنشأ كلها من ضروب صراع مستقرة في الأعماق، ومرتبطة في الغالب بصدمات نفسية من عهد الطفولة، وتسودها الناحية الجنسية في حبكتها واتجاهاتها، وهي الحيل اللاشعورية، والناشئة عن أصول نفسية بهذا المعنى الفرويدي الحديث، وبالتدريج، وبتتبع تاريخ الحالات المختلفة، تيسر تمييز عوامل دائمة في الحالات العصبية، وقد نشأت من الانفعالات أو المواق، وأدت إلى فكرة العقد، كما أدت بوجه خاص إلى أنواع نموذجية معينة من العقد، ولم يقتصر كشف المحلل النفسي على العقد، بل أمتد إلى اكتشاف مآسي سيكوباتية في "اللاشعور" واعتبرها المصير المحتوم للبشرية.

وهكذا أعد المسرح، ورفعت الستار عن المأساة الفرويدية "غرام الأسرة" التي نشأت خلف الستار في عيادة المحلل النفسي، وقد سماها "اكتشافات"، أما الناقد المرتاب فيراها أشبه بالإجراءات السرية في غرفة فاوست، وطلاسم الساحر في خلوته.

فالاكتشافات الفرويدية المعروضة للاختبارات العملية ليست أكثر قيمة من هذه الآراء البارعة التي تشبه نبوءات المنجمين، وصدقها يجب أن يكون محل اختبار على نحو آخر، فالنظرية أيا كانت تنشأ بكل دقة من نفس مرتبة الاهتمام العلمي الذي يعزز علم النفس وطب الأمراض النفسية، ويوجه تقدمهما، والاخفاق في تمييز هذه المرتبة العلمية هو المسئول عن روح العداء والاشمئزاز التي واجهها فرويد وحيداً سنوات طويلة، ومن الجائز أن تكون نظرياته خاطئة كلها، وبياناته مغتصبة، أو غير حقيقية، وأن أهميتها مبالغ فيها، ولكن غرضه يتساوى مع الأغراض والحلول التي تحظى بالتقدير في مهنة الطب، والسخرية والاحتقار ليست بالأسلحة الملائمة لاستقبال هذه البدع، رغم أن طريقة عرضها تضمنت كثيراً من بواعث التهكم والريب.

شيطان في القبو

هذا هو الاسم الزري الذي أطلقه دنلاب Dunlap على العقدة ليوضح أن المخلوق المقيم في الطبقات السفلى لمسكن العقل إنما هو ساكن وهمي، ويميل الإنسان في الغالب إلى القول أنها مسكن الجنس، وأياً كانت العلة فإن تتبعها إلى منبعها سواء أكان ذلك المنبع صدمة، أم

دوافع فاشلة، أم صراعاً أم موقفاً، أم أي داع آخر، فإن حبكة العلة تزداد ارتباطاً وتعلقاً بالعامل الجنسي، وأياً كانت القصة التي يرويها المريض عن أسباب أو مناسبات إصابته بالأعراض المرضية كما عرفها، فإننا نجد تحتها هيكلاً دفيناً مشوهاً ومحبوساً ومنزوياً في مخدع الأسرة، أو بعبارة أخرى نجد شيطاناً في القبو.

وسواء أكان المريض يعرف أم يجهل سبب علته العصبية، فإن مهمة المحلل النفسي واحدة، ومن الجائز أيضاً أن تكون فكرة المريض خاطئة، وعملية إخراج الشيطان من مخبأه إلى الهواء الطلق في الشعور، هي بمثابة إكراهه على الاختفاء كأي شبح يقضي عليه طلوع النهار، فإن دل على أنه شبح أو وهم من وحي الخيال، فكل ما يلزم هو طرده.

والعقد النفسية الفرويدية هي اضطرابات في التصرفات الناشئة عن رغبات ومخاوف وأنواع من القلق، وهموم مرتبطة بعاطفة قوية مكبوتة في اللاشعور، وتتركز في العامل الجنسي، ويمكن في الغالب تعقب آثارها إلى مرحلة الطفولة المبكرة، واكتشاف الصدمة التي أحدثتها، وبمرور الزمان نمت الصدمة مع النمو العام، وصدمات الطفولة في الغالب ذات طبيعة جنسية، وقد ظهر هذا الاتجاه في اعترافات الشبان المصابين بعلل عصابية في زياراتهم للعيادات الفرويدية. ويقول فرويد أن الدوافع الأولية إذا صارت في طريقها في سهولة ويسر، فإن الفرد لا يصاب بالعلل

العصبية. وأن الدافع الشامل لكل الدوافع هو اللبيد[١٨] Libido وفيه يسود الجنس، وهو منبع العقد النفسية. وهذا غزا التحليل النفسي غرف تربية الأطفال، أو بعبارة أكاديمية صار اتجاهه نشوئيًا. وكانت مشكلته أن يتتبع نشوء اللبيد. والبيد هو الشهوة. واللبيد والجنس لفظتان مترادفتان تقريبًا في اللغة الفرويدية، ومن الجائز أن تحل إحداهما محل الأخرى.

ولفرويد أن يوجه مجرى اللبيد كما يشاء، وكما يراه ملائمًا، ولكن هذا لا يبيح له أن يكرر عشرات المرات، وأن يكرر أتباعه مئات المرات لفظة جنسي Sexual غير مستخدمة في معناها الحرفي، ولكنها وسعت لتتضمن كل أنواع المظاهر الغرامية وعلامات الحب. وقارئ فرويد، والمؤلفات التناسلية غير المنقحة لاتباعه سيجد نفسه قادرًا على الحكم على مدى دقة فروع العلاقات الجنسية وتباعدها، وسيرى كيف أن فهم المحللين النفسيين لها ألبس العقد النفسية في غلالة رقيقة للغاية.

ومن الأفضل أن ينطلق هذا الشيطان على الفور، فقبل فرويد زمان طويل كانت لفظة جنسي تعني نفسية جنسية. وكلنا يعرف كل المعرفة ما تضفيه الصلات الجنسية على الحياة ما يجعلها جديرة بأن نعيشها، وعندما نتحدث عن «الإعلاء» Sublimation فإننا في الواقع لم نضف إلا مجرد اسم. على أنه في وسع أتباع فرويد أن يدعوا لأنفسهم أنهم كانوا أكثر فهمًا للجنس كباعث نفسي، وكعامل في علاج أمراض العقل.

---

[١٨] لفظة ابتكرها فرويد لتعن النشاط المتعلق بالجنس واستخدمها يونج لتعنى الدوافع الحيوية والنشاط عامة وهي في معناها الجنسي ترفق عادة بكلمة أخرى. المترجم

فان ذلك التقدم كان مستمرًا في دراسة المزاج الحديث، والمسألة الهامة هي مدي صحة تقدير الدور الذي يلعبه الجنس في نظر الفرويديين، وليست في أن نظريات علم النفس الأخرى قللت من شأنه. ولن نحكم على الموقف بالأقوال، والتعاريف، وإعلان النيات، بل يقتصر حكمنا عليه وفقًا للتطبيق العلمي في الحالات الجنسية التي عرضت.

وإذا أردنا أن نقرر الدور الذي يلعبه الجنس في نشؤ العقد النفسية، فإننا لحسن الحظ نستطيع إجراء مقارنة بين نظام فرويد ونظم التحليل النفسي الأخرى. ففي الجناح الأوسط يرى الفرويديون أن الجنس هو المركز الحيوي الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ويختلف هذا التقدير في الجناح الأيمن عند «يونج» فباقي الجنس الاهتمام المفرط نفسه، ولكن الدوافع الأخرى تحتل مكانتها إلى جواره. وإذا انتقلنا إلى الجناح الأيسر حيث «أدلر»، نجد التقدير مختلفًا اختلافًا بينًا، فان تنسيق «أدلر» لدوافع الحياة ينادي بسيادة أخرى. ومن هذه المقارنة يتضح اختلاف مكانة الجنس في التحليل النفسي من الناحية النظرية العملية.

وفي رأي فرويد أن العقد النفسية الأساسية تعد لبيدية في مشتملاتها وفي سلطاتها. وبما أن اللبيد شيء ينمو، فإن مذهب التحليل النفسي يصير مذهبًا نشوئيًا، أي أن الظروف المؤدية إلى العقد تتعرض كثيرًا أو قليلًا لمراحل نمو النفس البشرية؛ وتبعًا لهذا فإننا جميعًا نتعرض للإصابة بالعقد النفسية لأننا نتعرض للولادة والنمو والصدمات والضبط

والإرهاق. ومن ثم تعكس الأعراض ما نجتازه من ظروف .. أما علاقاتنا الانفعالية التي تنتج ألوان الصراع، فتظل فطرية شاملة في كل ألوان الحياة الحسية. وكل منا يواجه مشكلة النضج التي تتضمن النضج الجنسي الذي يعد مركزها. كما تنضج الشخصية أيضًا.

وتبعًا لهذا فان العقد النفسية كما تقابلها في العيادات تتسم بالطابع الفردي وفقًا للخبرة الشخصية، ولكنها مع ذلك تنسق وتبوب في نماذج معينة. وفي الانتقال من التشبث بالصدمات إلى صراع الدوافع، ومنها إلى الألوان المعينة للعقد النفسية، فان علم النفس الناشئ من التحليل النفسي يصير علم نفس أعماق متغلغل في الحياة، فيتجاوز تفسير الأعراض المرضية المعينة إلى تنسيق العلاقات الشخصية الوثيقة التي تحتضن مثل تلك الأعراض: ومن ثم يغزو الشخصية في محرابها الداخلي.

ونصل إلى اللب الجدلي الداخلي لنظام التحليل النفسي، وهو ليس مجرد العقد وحدها، بل هو تلك العقد الكبرى، فما هي؟ وما نظمها، وما طبائعها؟ .. فالمريض يروي قصته، ويتلق الإرشاد والعون والتشجيع وفقًا لمزاجه ولبراعة المحلل، والنتيجة، والفتوى، والحبكة هي العقدة التي يكتشفها المحلل أو يكشفها، والتي يجب على المريض أن يقبلها. وتقبع هذه النتيجة في الميوعة والريب التي تحيط بالعلاقة بين الأعراض المعقدة للمرض وبين الحل المحدود الذي تقدمه العقدة.

وقد حان الوقت لأن نتحدث عن عدة أشياء شديدة الوضوح، ولكنها منعدمة الارتباط كالكرنب والملوك، وشديدة التناقض كالقول بأن البحر يغلى حارًا، وبديهية كأن نتساءل إن كان للخنازير من أجنحة. ويبدو النظام الفرويدي من أول تعارف مؤلفًا من خليط من احتمالات بعيدة متشابكة صيغت في براعة على نحو يجعلها معقولة، وله تسلسل آراء متناقضة كالتسلسل القائم بين فيل البحر والنجار. ورغم هذا كله، فإنه يعرض كسلسلة من الاكتشافات الموضوعية لمكتشف شجاع تجرأ ووصف الأنسان كما هو لأول مرة.

وحان الوقت أيضًا لأن نوضح، أن مبادئ التحليل النفسي ليست حقائق، ولكنها تخمينات، ومشروعات من مخيلة فرويد الخصبة، فالحقيقة فيها قامت على تواريخ حالات مرضاه، ثم زودت ـ كما سنرى ـ بمجموعة من الأدلة المختلفة، ولكن من مصادر أخرى. وشرعية هذه المبادي تعتمد على استحسان هذه الفروض والادعاءات. فهل هي تساعد على تقدير الحياة النفسية العميقة؟ وهل هذه التفسيرات تمتد وتصحح الآراء الشائعة عن البصيرة في أجهزة العقل وقواه؟ وهل هي تتلاءم مع المدركات الأساسية للعلوم التي تدرس الإنسان؟ وهل هي ضرورية وصحيحة ومنطقية؟.

إن تقديرًا وحكمًا على هذا النمط، وبهذا المعيار، هو الذي يقرر مصير التحليل النفسي بصفة عامة. وبه أيضًا يتقرر أي اختلاف آخر كتفسيرات فرويد التي ظلت بمجموعة من الفروض رغم كتابته آلاف

الصفحات. وهذا المعيار لا يستبعد أي فحص أو اختبارات مادية أخرى. وإذا ما تتبعنا فرويد وهو يصقل مثل هذه المدركات كالعقد والليبيد واللاشعور والاستبدال [١٩] Conversion والردة «التقمص» Identification[٢٠] «والتحول»[٢١] Transference «والإعلاء»[٢٢] Sublimation وغيرها من الادعاءات الكثيرة، فإنه يجب ألا يغرب عن بالنا أنها ليست «اكتشافات» في مجال النفس بالمعنى الذي ذكره فرويد، رغم كل ما أضفاه عليها من سمات وألبسها من حلل.

ولو لم يقم فرويد برحلته الاستكشافية لقام بها أي باحث آخر توفرت له المؤهلات لزيادة الأرض نفسها والتغلغل في مجاهل قارة العقل الغامضة، فالاكتشافات، ليست إلا فروضة لا أكثر ولا أقل. وهو يراها ضرورية مقنعة، بينما سواه قد يخالفه في تقديرها، فلا يراها ضرورية، ولا مقنعة بل هناك من يجدونها متناقضة سخيفة. ورغم أنها أعلنت حقائق، فإنها في الواقع مجرد حلوله هو لما جابهه من مشكلات. وهي بمجموع تفسيره هو الذكريات التأمل الباطني لمرضاه بإثارة تداعى المعاني الحرة (وربما كان أبعد من أن يكون حرًا) في الأحلام وأوهام الطفولة، وقد

---

[١٩] الاستبدال _ في التحليل النفسي يقصد به تحول العقد المكبوتة إلى ظواهر جسمانية، كما في التحول الهستري.

[٢٠] التقمص _ عملية في التحليل النفسي. وفيها يتصرف الشخص أو يتوهم أنه يتصرف شخص آخر (بغير شعور أو بشعور جزئي).

[٢١] التحول _ لفظة يستخدمها المحللون ليعبروا بها عن حاله الحب أو البغض التي تتألف بين المريض والمحلل النفسي.

[٢٢] الإعلاء يستخدمها المحللون النفسيون لأجراء غير شعوري يؤديه الفرد، ويحول به نشاطًا جنسيًا إلى نشاط اجتماعي مقبول.

ربطها ببعضها البعض في نسق مترابط الأجزاء. هذا هو الهيكل المنطقي للبناء كله، ذلك البناء الذي سمي بسبب منبعه وتطبيقه بالتحليل النفسي.

وهل هناك من عقد؟ وهل لها من قيمة في أمراض العصاب النفسية، وما إليها من عقبات في الانسجام مع الحياة؟ وهل هذه العقد تقسم إلى طرز وأنماط؟ وهل وفق فرويد وأتباعه في تعين الأنماط ومعرفة وسائل نشوئها وإزالتها؟ وفي إجراءات اكتشاف العقد، إلى أي مدى وفق فرويد وأتباعه في الوصول إلى الطبيعة الحقيقية للنفس البشرية، وفهم طبيعة عملياتها ومنتجاتها؟

كل هذه أسئلة خطيرة تستدعي عناية البيت الفرويدي وانتباهه. وفي معنى فلسفي نفعي نستطيع القول بأنها عقد، ونستطيع الاتفاق على أن هذا اللفظ هو أفضل الألفاظ وأكثرها ملاءمة لذلك العامل النفسي في مجموعة العقبات العقلية والانفعالية التي تظهر حقائق عيادية وعقبات عامة تعرقل مسار التفكير القويم، والوجدان السليم، والحياة الطيبة.

وعلم النفس يرحب «بالعقدة» فهي مدرك كلي جوهري طال البحث عنه، ومن أجله يقدم شكره للتحليل النفسي لإسهامه به، ولكن التحليل النفسي يتجاوز النطاق، ويقول أنه توجد عقد معينة حددها فرويد، ومن أمثلتها عقد «أوديب» Oedipus والخصاء Castration والموت Death. وهى عقد يعترف بها آخرون، فيكرروا قصة كولومبس عندما وضح حيلة أيقاف البيضة على سنها.

وعندما عرض فايهنجر Vaihinger[٢٣] فلسفة «كأن» As If، فإنه قدم صورة لكثير من النظر الافتراضية، فأمراض العصاب والأحلام والنكسات تحدث وكأنه توجد عقد وكبت [٢٤] Repressionوغيرها. وعلى هذا النمط يعد التحليل النفسي بناء من عينة «كأن». وبالبراعة نفسها أطلق وليم جيمس William James تفسير «لا شيء إلا» على الميل إلى تحويل بعض الظواهر إلى أخرى أبسط منها أو أشهر، فحدة الطبع الزائدة عن الحد «لا شيء إلا» زيادة في إفراز الغدة الدرقية Thyroid كما يقول العلماء النفسيون المعنيون بالغدد.

وعلى النمط نفسه يرى أتباع فرويد أن غريزة الاستكشاف «لا شيء إلا» تحول من الفضول الجنسي، وإن الميل للقسوة لا شيء إلا مخرج للسادية[٢٥] Sadism، وإن تضحية الشهداء «لا شيء إلا» نوع ديني من لذة التألم (الماسوكية)، وكثير من ألوان النشاط التي يعيش بها الإنسان «لا شيء إلا» ألوان من اللبيد.

وعلم النفس الذي يحول شتى الظواهر إلى ولا شيء إلا يتألف في الغالب من أوقية من الحقيقة مختلطة برطل من المغالطات والسفسطة.

---

[٢٣] فايهنجر _ فيلسوف وضع فلسفة «كأن». وأهم مبادئها إن الإنسان استخدم التفكير في مجال تنازع البقاء. وأنه لا يزال عاجزًا عن بحث المسائل النظرية الخالصة. ولكن التفكير أصبح غاية بعد أن كان وسيلة، وأن كثيرًا من الأفكار ليست في الواقع إلا أوهامًا.

[٢٤] كبت (Repression) استخدم فرويد هذا اللفظ ليدل على عملية الصراع الآلي التي تنتقل من الشعور إلى اللاشعور مما يؤدي إلى أعراض عصبية. ولكن «ريفرز » (Rivers) خالفه في استخدامها لتدل على معناها العادي للكبت الشعوري، واستخدم ريفرز لفظة (Suppression) لتدل على الكبت الآلي (المترجم)

[٢٥] السادية _ تعبير أضافه الكاتب الفرنسي المركيز «دي ساد» وعنى به انحرافًا جنسيًا يحتم القسوة وإيلام الغير لاكتمال اللذة الجنسية (المترجم)

والتحليل النفسي في يد فرويد يجمع في ثقة وبالتساوي بين فلسفتي «كأن» و «لا شيء إلا» وهذه الثقة قد تكون ساذجة فيما تعرب عنه، ويجب أن تكون محل الاختبار والبحث.

وبرغم ادعاء واحد على الأقل من أتباع فرويد بسعة معلوماته، فليس لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن فرويد كان موهوبًا حقًا بمعلومات حرمنا منها. والوصايا العشر للتحليل النفسي ليست وحيًا موسويًا، ولا إلهامًا روحانيًا. والبيت الذي أقامه فرويد إنما يعد قويًا بقوة أساساته التي يجب أن تقدر بالمعايير المنطقية، شأنها في ذلك شأن أي اتجاه آخر يراد قبوله علميًا.

ومن الجائز منح أي مبتكر حق بناء الصرح الذي يريده وفقًا لما يراه من مدركات، وما يميزه من عقبات. وبهذه النية سنستمر في دراسة منشآت فرويد، فالبيت الذي بناه مشروع يتناول النفس البشرية، ويعرض في تحد على هيئة محلفين من النقاد ذوي العقليات العلمية، وعلى هيئة محلفين أخرى هي الناس جميعًا من نساء ورجال ممن يثير المشروع اهتمامهم، فيدفعهم إلى فحصه والتحري عنه لأنهم يعيشون في عالم يتأثر بفرويد سواء باختيارهم أو رغمًا عنهم. وفي عرف دنلاب أن عبارة «شيطان في القبو» لا تمثل العقد النفسية وحدها، بل تمتد إلى فرويد وكل أعماله، فهي مسخ خيالي صنع في استديو التحليل النفسي.

وليس التحليل النفسي اكتشافًا كالعثور على غابة بكر لم تمسها يد إنسان، ولكنه نوع من التأمل الذي أوحته اكتشافات أحكم حبكها

لتستخدم في اكتشافات أخرى. وهو يتصل بأكثر الظواهر تعقيدًا في الخبرة البشرية.. من أمور لم نتوصل إلى وجه اليقين فيها بعد. حقيقة أنه يوجد جهاز خفي في حياتنا النفسية ومن أجله نشأ علم النفس. أما عثور فرويد على منابع السلوك والتصرفات، فهذا موضوع شائك يثير كثيرًا من الجدل.

مجرى اللبيد

اللبيد هو الخيط المدع لنسيج الحياة عند فرويد، وهو عامل حيوي جنس. ومن العقائد الهامة في الفرويدية مسألة الدوافع الجنسية عند الأطفال. والموضوع الجنسي للطفل هو الطفل نفسه، فهو ذاتي العشق. فالتدليل، والدغدغة، إرضاء جزئي لمطالب الرغبة. والتقبيل أكثر أهمية في هذا السبيل؛ وهو من خواص المتع الجنسية فيما بعد. وفي أجزاء جسم الطفل مناطق منبهة لشهواته وتتألف حياته الجنسية من هذه المنبهات، وما تتعرض له من مؤثرات. فكل طفل يولد بقابلية تنبيه جنسية معينة. ويقول «أرنست جونز» Ernest Gones أن الحياة الجنسية في الطفولة هي أحدث وأهم اكتشافات التحليل النفس، «ففترة الطفولة» تمتد من الولادة إلى سن الخامسة، وحياتها الجنسية غنية وحافلة.. ولها تأثيرها الكبير على مستقبل نمو اللبيد.

والمرحلة الثانية للبيد هي «فترة الكمون» Latency Period وتبدأ في نحو الخامسة، وتمتد إلى الثانية عشرة، وفيها يتوقف الجنس، وتختفي العوامل الفجة للطفولة، ولكن أوجه النشاط المتسع، واتجاهات

سن التلمذة – تستمد طاقتها من منابع اللبيد. وينتاب الطفل هدوء جنسي نسبى قبل العاصفة في المرحلة الثالثة من عمره، وهي فترة قبيل البلوغ والمراهقة Pubertal or Adolescent وتستمر من نحو الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة. واللبيد أيضًا هو الذي يوجه هذه المراحل، فيوجهها أولًا إلى الفرد نفسه، ثم إلى أشخاص آخرين من الجنس نفسه، أو يلتزم موقف التخنث والحياد بين الجنسين. فإذا ما هملت فترة المراهقة وجههم اللبيد إلى الجنس الآخر.

وبفضل الحقيقة القائلة بأن في الطفولة اتجاهات جنسية، تتحول إلى انحراف Perversion[٢٦] إذا استمرت في مستقبل الحياة، وبفضل انتشار لبيد الطفولة، فان ما سبق وصفه بعهد البراءة (حين كان علم النفس بريء من التحليل النفسي) يحمل الآن اسمًا مريعًا هو الانحراف التحولي Polymorphous[٢٧] وهو مثل الأطفال في طبيعتهم، وفي مرحلة من نموهم. وإشاعات الجنس في هذه المرحلة الحرجة متعددة، فحب الطفل لنفسه يتمثل في النرجسية أو عشق النفس في الطفولة Narcissism[٢٨] ومن مظاهرها الميل إلى عرض الجسم، والاهتمام بأجسام الآخرين، ولا سيما من الجنس الآخر. وهو داء التلذذ سواء بمشاهدة أعضائهم الجنسية أو بفحصها. والانحرافات الجنسية، ولاسيما اللوط، هي حالة الثبوت أو الردة Regression في نمو اللبيد.

---

[٢٦] الانحراف – هو أي تحول جنسي عن الأوضاع الطبيعية. ومن أمثلته السادية واللواط.

[٢٧] Polymorphism _ هي حالة التحويل التي تنتاب الكائن في مراحل حياته _ المترجم.

[٢٨] النرجسية _ حالة عشق النفس واللفظة مأخوذة عن نارسيس الذي عشق نفسه_ المترجم.

وقد صنفت بمجموعة كبيرة من المجلدات عن انحرافات الحب الجنسي عند الأطفال.

ويبدو كأنه من سوء تدبير الطبيعة أن الأطفال رزئوا بآباء كأمراض الطفولة التي يتحتم على الأطفال اجتيازها. فلبيد بيئة عائلية ينشئ. لها فرويد قصة، ويبدو في المذهب الفرويدي أن الأسرة ليست مجالًا منزليًا سارًا، بل بمجال غليان، وكفاح خشن إلى حد ما.

فالعقدة الأبوية عقدة نموذجية. ويطلق عليها فرويد لفظًا محترمًا فيسميها «عقدة أوديب» وفيها يتجه لبيد الغلام إلى أمه، ويتجه حقده وحسده إلى أبيه، فيود لو أغتصب مكانه.

وتتمثل هذه العقدة في قصة أوديب وهو نجل أحد الملوك، ولكن هذا يحدث بغير شعور منه، وبالطاعة لقدره ومصيره المحتوم. ومن عنوان هذه القصة اقتبس اسم العقدة. ومع أن القصة اليونانية لم تتبع البتة التسلسل الفرويدي، فإن راويها ألف بوحي الوجدان حبكة اكتشف فيها فرويد تطبيقًا شاملًا لنظامه.

ومأساة اللبيد هي أننا جميعًا نرث تلك الرغبة التي تتجه إلى الناحية المحرمة. ويجب علينا جميعًا أن نتحلل من عقدة أوديب قبل أن نظفر بحياة جنسية طبيعية.. وليس لهذه المرحلة من سن محدودة. وهي في العادة تقع في فترة مبكرة من العمر، ولكن طول الإقامة، وسلطة الآباء تطيل فترة هذه المرحلة، وتجعلها مشكلة ملحة خطرة. فلكل منا مرحلة

أوديب، كما أن لكل منا مستوى ذكاء. وهي صفات بشرية عامة يفرضها القدر. والأبوة في التحليل النفسي مسئولية مخيفة، قد تصل إلى درجة النحس واللعنة.

وهناك مخاطر أخرى تنشأ من تنقل اللبيد بين خطري «سكيلا» Scyla و«كاريبديس» Charybdis[٢٩]، ونادرًا ما يسير اللبيد في مجرى هادئ. وهو ينبئ عن مسار الحب الحقيقي، ولكن «أوديب» يحلق مهددًا كل ابن رجل ولدته امرأة. وهو

«شيء هام، فطريقة دخولنا فيه، وخروجنا منه لا يمكن أن تخلفنا بغير أثر». ولم يقتصر شأن اللبيد على مروره في مراحل نمو متعددة، بل إن فكرة فرويد عنه ومراحل تكوينها مرت أيضًا بعدة فترات.

وفي التحليلات ظهرت أيضًا عقدة غريبة مخيفة. ويظهر أن طلعتها الكريهة كانت سببًا في تدليلها واحتضانها، فبينما لبيد المراهقة يتجه إلى الاستقلال في تحقيق رغباته، فإن روح العداء إلى الأب تؤلف «عقدة الخصاء». وهي الخوف من الفشل الجنسي والحرمان. ويلاحظ أن روح العداء للوالد مشوبة دائمًا بالتهيب منه لما يتمتع به من سطوة. وهذه العقدة التي تخلف عقدة أوديب أو تنحدر منها، تلعب دورًا مختلفًا في نمو الطفل وتطوره.

---

[٢٩] سكيلا وكاريبديس: وحشان مائيان وردًا في قصص هومير الشاعر اليوناني المشهور. وكانا يقيمان على صخرتين بين إيطاليا وجزيرة صقلية. وكانت «سكيلا» ذات ستة رؤوس و١٢ قدمًا وتنبح كالكلاب، ومنها كانت رؤوس الكلاب والذئاب تنقض على السفن لتلتهم البحارة. أما كاريبديس فكان يرقد تحت شجرة. وفي كل يوم كان يبتلع ماء البحر ثلاث مرات ثم يعيده. (المترجم)

ومن البدء يؤثر موقف الأنانية المركزية على اللبيد، فالطفل قاسي ظالم يطالب بالقدرة الكلية. وهذه الصفة تتمثل بعدئذ في الحياة الجنسية، وتظهر فيه بالتلذذ في الإيلام أو «السادية» التي تجمع بين تصرفات القسوة والرغبة، ومنهما تستخلص لذة مختلطة. والقسوة حتى ولو كانت مجرد مكايدة فهي من حيث الواقع والنشأة نوع من السادية.

وإذا اعتبرنا السادية أو لذة الإيلام هي «سكيلا» فإننا نجد «كاريبديس» في الجانب الآخر، وهو «لذة التألم» Masochism. وهو نشوة منحرفة تكتمل فيها اللذة إذا اقترن التألم بالإرضاء الجنسي. وفي هذه المرحلة من النمو اللبيد يظهر الاختلاف بين الذكور والإناث. وبما أن التحليل النفسي اكتشاف ذكري، فانه يستنبط مدركاته الليبدية من الدور الذي يلعبه الذكور، ولكنه مدين بكثير من مواده العيادية للإناث.

ويقابل عقدة أوديب في الذكور «عقدة الأكترا»[٣٠] Electra في الإناث. والتشابه بينهما ليس تامًا، ولكنه كبير إلى درجة ترضي فرويد في قوله بأنه يوجد في الجنسين ميل فطري إلى إنشاء علاقات جنسية مع المحارم. ويعتبر تحريمها الثقافي كتأكيد لوجود هذا الميل القوي إلى هذه الناحية المحرمة.

ويرى فرويد أن التباين الواضح في المظهر الخارجي للأعضاء التناسلية في الجنسين يثير عقدة الحسد في الإناث، وهي تقابل «عقدة

[٣٠] عقدة الكترا هي الميل للأب والعداء للأم عند الإناث. (المترجم)

الخصاء» في الذكور. وهذا الازدواج في المتناقضات، ويعبر عنه بالتقاطب Polarity، وفيه تنتظم اللذة والألم، والحب والكراهية، والإناث والذكور. ومثله «التناقض العاطفي» Ambivalence. وفيه تحتشد في وقت واحد ميول عاطفية متباينة، فيخاف الفرد ويكره، ومع ذلك فهو يحب ويبتكر ويدمر. كل هذا يدخل في ميدان الصراع بين الغرائز المتنافسة التي تلبدت (من بعيد) في الغالب.

وإذا أردت أن أقدم مجرد هيكل نحيل لآراء فرويد الجنسية عن خطري «سكيلا» و«كاريبديس» فإنها ستحتاج إلى فصل كامل. ولا أجد في ونفسي القدرة ولا المزاج، وإني لقانع بأن أوضح كيف أن التحليل النفسي الفرويدي جعل الأعمال البشرية الجنسية بطريقة قوية غريبة. وإذا ما انتهينا من رحلات «عوليس» Ulyss[٣١] الليبدية، وأيًا كانت اتجاهاتنا في علم النفس، فإننا نصل إلى مرفأ نعرفه ونقبله، وهو «الإعلاء» منبع القوى الباعثة للإنسان على الظفر بمصالحه وتوجيه ولبيد الأنا» – Ego Libido[٣٢] هو الطاقة المنصرفة بغية التعبير الذاتي، وللظفر بالمركز والدخل والمقام الاجتماعي.

---

[٣١] عوليس أحد أبطال قصة الإلياذة اليونانية. وهي من تأليف الشاعر اليوناني هومير.

[٣٢] «الأنا» وهي خبرة الفرد عن نفسه، وعن تقديره لها، وهي الوحدة الفعالة أو المحركة فيه. وقد استخدمها التحليل النفسي في معي موضوعي ضيق الأفق لتعنى ذلك الجزء من النفس المتصل بالواقع الخارجي، وهي شعورية، وتتضمن تمثيل الواقع وتقدمه الحواس كما يذكره تحت الشعور. وبها أيضًا العوامل المنتجة والتأثيرات العميقة المقبولة التي تخضع للرقابة. وسيأتي تفصيل الحديث عنها في الفصول التالية: ــ المترجم.

وفي كتابات متأخرة منح «دافع الأنا» مركز الزميل المصاحب للدافع الجنسي، أما طريقته في التعبير عن نفسه ثم القوى. المحركة له فيستمدها من النبع المركزي. وفي حالة انفاق اللبيد. لبعض الطاقة على المشكلات ومحاولات التملك والنشاط فانه يصير «لبيدًا موضوعيًا» Object - Libido ويجمع صفاته من تكملة «الأنا» ومن المجرى الأصلي للبيد. وعندما نكون في حالة انتعاش نهنئ فيها أنفسنا، أو مغتبطين من رؤية انعكاس صورتنا في المرآة، فان اللبيد يتجه من الجنس إلى الأنا، فإذا ما أثار اهتمامنا عمل ما فإن اللبيد يتحول إلى «موضوعي».

وهذا التحول في التعبيرات الناضجة للبيد ينطوي على بعض مقاييس الإعلاء مباشرة على قرارات اللبيد وقدرته الابتكارية التي اتصالا بالباعث الجنسي وإشعاعاته، فالشعر، والمسرحيات، والقصص، والفروسية، منتجات سامية،. أو منبعثة من اللبيد، ولن يكون لها من وجود في عالم تختفي فيه اللبيد. والعنصر الوجداني للصلات والإخلاص والولاء، وهو المستمد من الرغبة الجنسية وقوتها العاطفية إذا ما أعيد توجيهه في هذا السبيل يكون مسئولًا عن العلاقات في جميع مجالات النشاط البشرى. وهو مسئول أيضًا عن منتجات النفس الخاصة والثقافية.

والليبد في هذا المعنى الواسع ـمن الموضوعات المفضلة في كتابات فرويد المتأخرةـ يقترب ويندمج مع «ايروس» Eros[٣٣]، ومع الحب بصفة عامة ولكنه يحتفظ بطابعه الأصلي كشيء شهواني. ولا أقل من أن يجلب «ايروس» الشفاء للمبيد كخطوة جوهرية لإكمال نضج النفسية الجنسية، والنمو الوجداني. وتحولات اللبيد النشوئية تؤدي إلى مشتملاته، وعند تطبيقها على أمراض العصاب اعتبرها فرويد معينة وعامة كالتعبيرات التي تظهر في حالة الإخفاق في الحياة الجنسية. وفي حالة حياة جنسية سوية تستحيل الإصابة بأمراض العصاب. ومثل هذه النتيجة الكاسحة الخطيرة الشأن تحتاج إلى خص دقيق حتى تظفر بالموافقة الواجبة،

والحياة على نمط الفيرويديين معرضة للثبوت والتوقف والردة، مما يعني النكسة والعودة إلى مرحلة سابقة في اللبيد الذي ينظر إليه فرويد من حيث الكم. فهو في نظره، مستودع للطاقة المعدة لشتى أهداف الحياة ما لم تستنفد في التعبيرات الجنسية. وبما أن اللبيد يحمل طابع تقلباته المبكرة طول الحياة، فهو يترك نصيبًا يوقف على الذات. وهذه الخاصية تسمى بالنرجسية أو عشق النفس. وهي تصوير فرويدي نموذجي مأخوذ من أسطورة شاب رأى صورة انعكاس جسمه الجميل في الماء فهام بصورة نفسه. وعشق النفس هو لبيد «الأنا» ويعاد ظهوره في المراحل المتأخرة لصقل الخلق. والجزء النرجسي للبيد من المظاهر

---

[٣٣] ايروس ــ إله الحب.

العامة الشاملة. فالإعجاب بالذات عشق لها. وهو ردة أو نكسة إلى عهد الطفولة والتشبث بها.

وعلى هذا النمط يوجد أيضًا جزء للواط في اللبيد. وهو يستمر في عمله لأننا جميعًا مررنا بمرحلته، فالمغالاة في الصداقة والاستسلام والخضوع بين المراهقين من جنس واحد، مسائل ينظر إليها بعين الريبة. وأولئك الذين يسودهم هذا الاتجاه ويحدد في الغالب مجرى حياتهم العاطفية قد ثبتوا في مرحلة حب جنسهم نفسه، وشذوذهم يفصلهم عن الآخرين، ومشكلاتهم هي بئر الوحدة.

والثبوت في مرحلة أوديب يلون الخلق ألوانًا شتى، لأن الاعتماد على الأم، أو الحسد والحقد على الأب يلعب الدور الأكبر في هذا السبيل. وفي الانتقال من مرحلة عشق النفس إلى مرحلة أوديب يخلف اللبيد طابعه المخيف على الحياة في المستقبل، وينزل النكبات بأولئك الذين لا يعرفون كيف يسوسونه بنجاح، فإن يد الجنس الثقيلة تهدد المصير البشرى.

وحتى إذا فرضنا أن نمو اللبيد وصل إلى النضج في أجزائه الكبرى، فإن الخطر لا يزول، فبتأثير الضغط، كالفشل، والعقبات، أو صعوبة التعبير عن النفس، يحتمل أن تحدث ردة إلى المراحل الأولى في تعبيرات اللبيد عن نفسه. والعادة السرية مثل منتشر يدل على ثبوت النمو أو الردة. واحتمال إعادة تقويم الاتجاهات النافلة يتوقف على مدى قوتها الأصلية عندما تسود.

وقد يتعذر علينا أن نقرر مدى إظهار التعقيدات، اللبيدية لحالة الثبوت، أو مدى تمثيلها لحالة الردة التي تعد من المدركات العامة لعلم النفس، مما يطابق الحقيقة في غير جدل. وقد كانت معروفة قبل عهد فرويد. وعليها يمكن أن تطبق الدوافع اللبيدية أو غيرها، فهي تدخل في نطاق الغرائز والاتجاهات الخلقية المشتقة منها. وعلم النفس النشوئي، Genetic Psychology في حاجة إلى مدرك الردة، كما أن طب الأمراض النفسية يستخدمها. ويعتبر الدكتور «كور» Core الهستريا كنموذج الأمراض العصاب المرتدة.

ومن كل المدركات الليبيدية الفرويدية الناشئة من مراحل النمو، فإن تلك المشتقة من توجيه اللبيد إلى مناطق الجسم تؤدى إلى أغرب الآراء بشأن منابع سمات الخلق الناضج، فتعود ثانية إلى التوقف، والثبوت، وتجاوز النمو، والردة. والمناطق الشهرية الثلاث هي الفم، والأست، والمناطق التناسلية، ومعها جزء القناة البولية المشترك في نشاط الأست. أما بقية هيكلنا الجسماني، فيستبعد من الظفر بنصيب في تأليف خلقنا، إذ ينقصه الاتصال اللبيدي، وإلا لكانت لنا خواص خلقية كبدية، ورئوية، وصدرية. وعلى هذا الأساس، فإن خلقنا لا يقرأ في تضاريس المخ، بل في الزوائد المعوية.

وقد اكتشف، «فرويد» «ذا الشخصية الشرجية» السمات السائدة في الشبان وعزاها إلى «لا شيء إلا» منبعها الطفل عندما كانت عاداتهم الجسمانية في مرحلة ما قبل التناسل. وانتهى إلى الأشخاص الذين يقوي

فيهم لبيد شهوة الأست، فقال أن جزئها الذي لم يرق إلى المرحلة التناسلية يتم «امتصاصه بالتحول» إلى سمات خلقية، وهذا نوع غريب من «علم الصنعة» Alchemy النفسية في الواقع. ويستمر التحول عن طريق تفاعل العادات، والرموز، والتقمص، والإعلاء. وسنعود إلى هذا الفصل الشاذ في الفرويدية عندما نشرح أحوال ووسائل منطقها. وقد فسر محللون آخرون سمات الشخصية الفمية وشخصية القناة البولية. وهذا الجزء من التعاليم والمبادئ يقدم كوحدة كاملة في التحليل النفسي، ويؤثر على وسائله بطريقة تفوق الفهم العادي.

ولن تنتهي قصة اللبيد وما انطوت عليه عند هذا الحد. فمن الواضح أن التحليل النفسي مهما تعدل وتغير بما يحتمل أن نسلم به فيما بعد، فإنه سيظل تحليلًا جنسيًا، فيصير الفرويدية يتوقف على مصير التعاليم الجنسية المندمجة فيها.

الباب الثاني

مواد البناء

رغبات مكبوتة

قدر للبيت الذي أنشأه فرويد مرحلة بعد أخرى أن يكون صرحًا رائعًا. كانت أسسه العيادية هي حيل مرضى الهستريا، وهي مسائل تهم الأطباء أكثر من سواهم، ولها أيضًا أهميتها بالنسبة لعلم النفس، كما أنها تبعث الأمل في شفاء المرضى العصابيين، ولكن آراء فرويد المنحرفة قوبلت بالسخرية والإهمال في الأوساط الفنية، وعلى الطريقة التيوتونية. وكانت مشكلته عيادية، ولكنه تناولها من الوجهة النفسية مما أدى إلى اكتساب الأنصار من خبراء الطب النفسي، ولا سيما أن علم نفسية الشواذ كان في طريق التكوين. وقد وضح التقاء هذين الاعتبارين أن أعراض الاضطرابات النفسية تحتاج إلى مقاييس أكبر من التفسيرات النفسية، فإن مرضى الأعصاب ومعتلو النفس بأفكارهم الثابتة، والحالات الغريبة للعقل، والتشكيلات العجيبة لأنواع السلوك العقلي الضارة الشاردة، كل هذه الحالات تظهر بين الأفراد العاديين، ولكن بدرجات ضعيفة مهذبة، وبنسب قليلة، وكل هذا معترف به كل الاعتراف، وإن كان قد تعذر قبوله عندما بدأ فرويد بحوثه، وريادته للأرض التي لم يطأها قبله

إنسان في عالم الطب؛ ومن ثم تيسر للتحليل النفسي أن يشيد القنطرة بين الأفراد العاديين والشواذ.

وبحث فرويد عن مزيد من العوالم ليغزوها، فتناول عمليات نفسية أخرى تعمل فيها نفس الأجهزة بالشكل الذي تعمل به في أغوار واللاشعور، في مرضى العصاب. وفي ذلك العالم السفلى المهجور وجد ما بهره وأسترعي انتباهه، ففيه تتحكم العواطف، وتندفع الغرائز إلى الأمام، أما الأمور غير السارة منها فتنزوي في مطاوي اللاشعور رغم أن كبته غير تام. ولمصلحة السلام في العقل كان ذلك الكبت حاجزًا وقائيًا، ولكنه كان دفاعًا غير حكيم عندما أدى إلى أعراض الأمراض العصابية وما ينجم عنها من نتائج متعبة.

واعتبر فرويد أن أمراض العصاب ليست إلا وسيلة للفرار، بالوقوع في المرض الفعلي الذي عده تعويضًا وهميًا، وهذا وضح مدى خبث اللاشعور ودهائه في تدبير خططه، فمرضى العصاب هم في الواقع في حرب مع أنفسهم، وفي كل منهم يتصارع جانب من الشخصية مع آخر. وأنواع الصراع من مرتبة واحدة في الحياة العادية والشاذة، مما يوجب فص هذه الأجهزة النفسية على هدى تعبيرات النفس في حالات أكثر شيوعًا وأكثر انسجامًا مع الحياة العادية من حالة أمراض العصاب، وهذا الانسجام نجده في كل يوم، وفي السلوك اليومي للناس. وعندما اكتشف فرويد شيوع الرغبات المكبوتة بين الناس جميعًا، انتقل إلى الخطوة التالية ليكشف الممرات المتعددة التي تنساب فيها، فإن أمراض

العصاب كانت واحدة من الأدلة المدمرة لما تنزله الرغبات من مآسي في عملياتها.

وكان فرويد ملهمًا عندما سأل نفسه أين أيضًا نجد أدلة على أن هذه القوة نفسها تواصل أعمالها بشكل آخر. وكما واتاه السؤال واتاه الجواب، ووجد ضالته في الأحلام، فهي أيضًا من إنتاج «اللاشعور»، وهي تقتحم طريقها، وتظهر رغم كبت العقل ورقابته. وإذا كانت الفكرة أو الشعور وكل عملياته تفرض سيادتها في يقظه النهار، ففي النوم يختفي ذلك النشاط الرقابي ليعطي تحت الشعور مجال العمل. وهنا ظهرت مواد بناء لتشييد طابق أخر في البيت الذي بناه فرويد.

وقد اختار فرويد لفظة رقيب Censor للدلالة على تلك القوى الكابتة. ولا يوجد إنسان يتصرف كما يجب، بل إننا جميعًا ممنوعون إلى حد ما من عمل أشياء كثيرة. فعلينا رقابة بوليسية من الخارج، وكل منا يؤلف بوليسه الشخصي. ومتى يخلى الرقيب مركز حراسته، في النوم عادة، وفيه نحلم. وفي النوم فليأت من الأحلام ما يأتي في غياب ذلك الرقيب المنطقي والاجتماعي. وكانت هذه هي الفرصة الذهبية لفرويد، فالأحلام هبة من الله، وتفسيرها يمد التحليل النفسي بالإرشادات، وينشر الرسالة الحتمية الفرويدية.

ولقد كان يوسف الصديق يعرف أن للأحلام معاني، ولكنه لم يكن من أتباع فرويد، وإن كان من الرمزيين، كما أن فرعون مصر لم يكن مريضًا بالعصاب. وكان تفكير فرويد في تفسير الأحلام يتجه إلى أعماق

بعيدة، وإلى أهمية حيوية. ومن ثم صار التفسير أداة هامة في وسائله الفنية، فالمريض يكبت غير السار، والحالم يعبر عن السار تحت ضغط مشابه. وفي الأحلام تتسلل «الرغبة الفرويدية» وتتحقق الرغبة المكبوتة، ويطلق سراح «اللاشعور» في عالم من صنعه. ويتضمن هذا الاكتشاف الشيء الكثير، فأوحى مبدأ نفسي هام، لم يكن كله جديدة، ولكنه ظهر في ضوء حديث. فما هو الحلم؟ أنه انطلاق الخيال في أثر الرغبات؛ ويقول المثل «لو كانت الرغبات جيادًا لركبها المتسولون». وفي الأحلام تنتج الرغبات جيادًا معدة كالمركبات التي أعدها الجان لتنقل «سندريللا» إلى المرقص، وإلى أميرها الفاتن، وما قصص الجن إلا أحلام الجنس البشري.

«وتفكير الحلم»، وتفكير الرغبة شيء واحد، وكل منهما اتجاه لميل عام. وبهذا وصل فرويد إلى فكرته الخصبة، وأنشأ نظامين للتفكير، فالحلم من حيث هو، تخيل وانطلاق وراء الأوهام؛ وهو أقدم وأكثر شيوعًا وانتشارًا ما نسميه بالتفكير (المنطقي). ونحن جميعًا حالمون متأصلون. وعن طريق فرويد صارت أحلام اليقظة إجراءات معترفًا بها، وأعراضًا للسلوك العقلي. ومن ثم فهناك مبدآن يقودان إجراءاتنا العقابية سواء أكنا يقظين أم نائمين. فبدأ اللذة يقود دوافعنا في النوم واليقظة، فإذا كنا غير مقيدين، فإننا نستسلم للرغبات وأحلام اليقظة والتخيل. وهناك أيضًا مبدأ الواقع، ومعه يجب أن ننسجم ونتلاءم مع هذا العالم القاسي المنظر الشديد الرقابة والأحكام؛ فإذا ما أطلق سراحنا، فإن

عقولنا بطبيعة الحال تنساق إلى مشتهاها أما في ساعات العمل، فهو أمامنا، وفيه نحصر تفكيرنا.

وسواء تبعنا فرويد جزئيًا، أو كليًا، أو لم نتبعه، وسواء أثرنا بعض التحفظات والاحتجاجات، فان تصويره للأحلام وإدراكه لأمرها بحث ثمين يضيء مجرى النفس. ويبقى بعدئذ سؤال حرج فماذا سيفعل فرويد بخاماته الثمينة؟

كان أول استخدام للأحلام هو مساعدة التحليل النفسي، فبالرغم مما يلقاه من حلل نفسه من تشجيع متواصل ليظل مسترسلًا في الحديث، فان مجراه يتوقف، وعندئذ يمكن إحياؤه بدعوة بسيطة، «قص على بعض أحلامك». وهذا صار تفسير الأحلام عاملًا مساعدًا في فن التحليل النفسي. ولا يقتصر عمل الأحلام على الكشف عن شخصية الحالم، وإظهار مركز الصراع في نفسه، بل يمتد إلى أجهزة التخفي التي استعان بها «اللاشعور» كي يعبر عن نفسه.

وتفسير الأحلام يكشف عن القوى البدائية للدوافع العميقة في أوضاعها القريبة من الطبيعة، كما يكشف عن العدد الوافر من الحيل التي تستعين بها بواعث الأحلام في تحقيق أغراض الأحلام. فالحلم مقابلة شخصية يروى الفرد فيها تاريخ حياته الخاصة، ويمثل فيها الحالم شخصية صحفي في غير وعيه. وبهذا قدمت الأحلام مواد بناء إضافية هامة للتحليل، وزادت في فهم الحياة العميقة للنفس في يقظتها ونومها.

وما يقال عن أن الحذق والمهارة في استخدام اللغة يخفي الآراء كما يوضحها، ينطبق إلى حد كبير على لغة أعراض الأمراض العصابية، ففيها صراع له ضغطان. ضغط الدوافع لتعبر عن الحوافز الغريزية. وضغط الضرورة القاضية بالقمع ليكون التصرف مقبولًا في المجتمع. ونحن نحلم بسبب الضغط الأول. وتتخذ أحلامنا هيئتها المعروفة بما تضم من عناصر التخفي والتحول بسبب الضغوط الثاني؛ ولسبب إضافي آخر وهو أن لغة التخفي الرمزية الوهمية السرية شديدة الصلة بعملية التفكير الأولية التي تعمل جريًا وراء اللذة.

ولكل هذه الأسباب كان من الطبيعي أن تكون الأحلام مشوهة من وجهة النظر الواقعية في العالم، فهي تشير إلى نظام الرغبات وأنواع الكبت بما يتعرض له كل منا. وفي كل هذه الاتجاهات تجد إضافات فرويد وتنقيحاته لعمليات الأحلام مكانًا ممتازًا في علم النفس العام للأحلام، ولاسيما تلك الناحية الخاصة بحياتها، فهي من ألزم الضروريات لتقديم مفتاح البواعث العامة لكل إجراءات الأحلام، ولكنه ليس المفتاح الوحيد، فللوهم أمزجة أخرى وأغراض ضالة. والقبول النهائي النظرية فرويد عن الأحلام يتوقف على تطبيقها، أما المبادئ نفسها فتستدعي حتمية القبول.

مادة الأحلام

وأدى الاعتراف بأهمية الأحلام إلى تعميم مبادئ التحليل النفسي وانتشارها بين الناس. وفي عام ١٩٠٠ صدر كتاب «تفسير الأحلام»

فكان كتاب القرن الفرويدي The Interpretation of Dreams. ويقول تلاميذ فرويد المتحمسون أنه أحتل مركز الصدارة والاهتمام في علم النفس الشاذ، كما أحتل أصل الأنواع [٣٤] Origin of Spicies مثل هذه المكانة في علم الأحياء. وحاول فرويد أن يجعل الأحلام مركزًا طبيعيًا محدودًا في نطاق الأمور العقلية، وقد نجحت جهوده في هذا السبيل، كما نجح من سبقوه، ولكن نجاحهم كان جزئيًا. ولم يحتل كتاب الأحلام الفرويدي مكانة دراسة الأحلام كالات تفكك وعدم ارتباط، ولكنه غذاها بتقديم العامل الباعث لها، فالحلم ليس كله عبثًا، ولا هو في حبكته وتفاصيله نوع من الفوضى والتقلب كما يبدو، بل أن الحالم يتخيل، ويعد المسرح، ويقدم حقيقة منجزة ما يظهر في اليقظة كشيء شديد التباين مع الواقع، ولا يمكن قبوله؛ كما يقدم ما يتردد في الاعتراف به.

وعناصر الأحلام عند فرويد تظفر بالتقدير والاعتراف بمجرد البحث عنها، فسمة الحلم الناشئ عن باعث نفسي مصحوب بخيط من القمع حقيقة كأنواع الصراع. والأحلام في بعض الأحيان تحمل بواعثها وتعلنها.

والأحلام في عرف فرويد عملية تهريب للرغبات المكبوتة، وطريقتها في التهرب من جابي ضرائب الدخل في العالم الأخلاقي

---

[٣٤] كتاب أصدره «شارلس داروين » في القرن الماضي، وأثبت فيه أن جميع الأحياء تطورت من أصل واحد. المترجم

والاجتماعي طريقة طريفة. فهي تهرب سلعها بلفها في حزم خداعة، وتستخدم وسائل تخف فذة بارعة. وفي بعض الأحيان قلمًا تعنى بأوضاع اللياقة الأخلاقية أو المنطقية. والقصة كما يرويها الحالم تتألف من محتويات الحلم السطحية أو الظاهرية، أما الحقيقة العارية للقصة، ومحتوياتها الكامنة، فتحت السطح، وهو ما تعنيه وتخدمه، وترمي إليه، وتعبر عنه. واستخلاص الواحد من الآخر هو مهمة تحليل الحلم.

وعملية التحليل ليست مجرد فك رموز الشفرة كما هو معروف، فإن الشفرة رموز صناعية نبتكرها بمعرفتنا لخدمة أغراضنا، أما في نصوص الأحلام، فإن فرويد يصر على أنها اللغة الطبيعية للنفس، وهي ليست مفهومة بعد لإدراكنا الشعوري الذى تدرب على لغة التفكير اليقظ. ولغة الأحلام في الواقع نموذج أصيل لعملية التفكير الأصلية. والخيال أقرب إلى لغة العقل الدارجة وإذا كان استخدام هذه اللغة يميل إلى ما هو جاف وأناني وروائي وفظ وخبيث ومداعب ووهمي، فأنها تعرض هذا الخليط من الميول بحق سيادة النفس، فهي طبيعية كسمات الطفولة، وهي أصلية كأساطير الجنس؛ وبكليهما تقارن المنتجات الثقافية للحلم، فهي تتشابه في مادتها وطريقة تكوينها. وهي صادرة من مخيلة محكمة يتمثل فيها المجنون والحب والشاعر والطفل والبدائي والحالم...

ويبدأ عمل الحلم بتفنن اللاشعور الذي يعمل متأثرًا بالقيود التي يفرضها هو نفسه، ويستمتع في الوقت عينه بحريات ومسموحات يستولى

عليها بغير إذن، ثم يقدم منتجاته عندما تكتمل إلى المندوب الاحتياطي لنفس الشاعرة. وإذا ما استيقظنا، فإن السيد "الشعور" قد يعتبر الحلم كلقيط وضع أمام باب داره، ويفشل في رؤية السمات الدالة على أنه والده. وهذا ما يقدمه لنا مفسر الحلم. ومن الجائز أن يفرضه، فإن إثبات الشخصية لن يكون كاملًا كما هي الحال في بصمات الأصابع، لأن كلا من الذات المتيقظة والنائمة تستخدمان أسماء مستعارة وإعذارًا تبرر التنصل من كل تبعة. على أن تفسير عمل الحلم والتكهن بأمر عمليته من المادة الناتجة، وتعقب الأبوة البدائية، وسلسلة النسب للحلم وأقاربه، إنما هي جزء من الفن الذي بدأه فرويد. ويجب أن نعرف أن دراسة الأحلام من اختصاص على النفس إذا ما نظرنا بدقة إلى تفسيرات فرويد لها.

وإذا كانت الأحلام كما تظهر في عيادات التحليل النفسي توحى بأنها رغبات مكبوتة، وإنها تخفي الرغبات عند إظهارها في الحلم، وإنها تستخدم الرموز، وأن الرموز تستخدم لونًا مفضلًا من العلاقة بين الرمز الذي تختاره وبين الشيء أو الشخص أو العلاقة أو العاطفة والفكرة المرموز إليها، فكل هذه المسائل يجب أن تكون محل دراسة كل المشتغلين بالأحلام بوجه عام، فإن الدليل الذي قدمه التحليل النفسي بعيد عن أن يصل إلى مرتبة الكمال. وعلم النفس لا يستطيع تجاهل دراسة التحليل النفسي للأحلام، وقد درس «بيرس» Pierce بضعة آلاف من الأحلام لبضعة مئات من الناس، فوجد أن أقل من خمسين في المئة من هذه الأحلام لا يمكن تفسيرها على أنها تحقيق للرغبات أو

تعويض عنها إلا إذا التجأنا إلى فروض وانحرافات تعسفية. وعندما استخدم وسيلة التداعي الحر كما فعل فرويد، فإنه أيده تأييدًا تامًا في أن الأحلام ذات معنى كامن، وإنها تفسر وتستخدم بمجموعة كبيرة من الرموز. فالحلم في الغالب تصوير المجموعة من الآراء والعواطف العميقة، فهو عرض سينمائي لجزء من حياة الحالم الذي يعد الممثل والمشاهد في وقت واحد.

وليس من السهل اتخاذ قرار في نظرية الأحلام لفرويد إن كانت صحيحة أو خاطئة. ومع الاعتراف بفائدتها، فلا يزال أمامنا أن نقرر مدى تطبيقها، وعما إن كانت طريقة فرويد في تطبيقه لمبادئه مقبولة مضمونة. ويبقي بعدئذ صحيحًا ثابتًا أن للأحلام إنتاج متعدد الجوانب، ويحتاج تفسيره إلى نظريات متعددة أيضًا. وقد أعاد فرويد نظره فيها، فكانت الحالة الوحيدة التي قدر فيها إسهام من سبقوه، ولكنه يجد نظرياتهم جزئية ينقصها الباعث المحرك، وهو محور تفسيره.

وتترك نظرية فرويد كثيرة من الأسئلة بغير إجابة، فهل لكل الأحلام معنى واضح وآخر كامن؟ وهل المعنى الكامن هو الذي يسود دائمًا؟ وهل توجد أحلام تروي قصتها جيدًا بلغة الحالم نفسه؟ وهل الأحلام تتكلم دائمًا بلغة التشبيه والأمثال.

وأثارت الطرق التي يقدم بها الحالم مواد أحلامه ووسائل إخفائها أيًا كانت صلته بنفسه اليقظة، أثارت هذه الطرق كثيرًا من الألفاظ والمصطلحات، وكثير منها مناسب كل المناسبة لعمليات مألوفة، وإن

كان فيها شيء من التلفيق في بعض الأحيان؛ فالحلم، يكثف، Condense، ويطلق صورًا ومناظر في حركة سريعة، وهو يختار لحظات مؤثرة سبق تصويرها، وكلها عادية، وبعد هذا يستخدم الرموز في تعبيراته كما نفعل حين نرسم صورة

أو نروي قصة؛ فاللغة تستخدم الاستعارات والتشبيهات وأنواع المقابلة، وكذلك تفعل الأحلام.

وعقلية الحلم تميل إلى أن تكون لفظية فهي تجيد التلاعب بالألفاظ. ومن المعروف قبل فرويد أن الأحلام ليست حرفية، بل هي غنية بخيالاتها البعيدة. وقد أدرك علماء النفس هذه الخواص قبل فرويد؛ والحالم "يتقمص" Identify [٣٥] شخصيات أحلامه بطريقة ما، وهو "يحول" [٣٦] Transfer موقفًا معينًا إلى مسرح أخر، وهو يبرر، ويسمو بالأشياء إلى مستوى المثل العليا، وهو يحكم الأشياء ويزخرفها؛ وفي الجملة إنه يتخيل ويتوهم، كما يفعل في أحلام اليقظة. وهو في مجموعه يكشف عن حالة شخصية بطريقة ما. ومن الجائز أن يكشف الفرد في أحلامه عن بعض أوجه شخصيته، وحقيقة دافعه، مما يتعذر عليه الافصاح عنها أو اكتشافها بإدراكه الشعوري.

---

[٣٥] التقمص ـــ نوع من التعرف في العادة، ولكنه عند المحللين المفسرين يعني عملية تقمص. وفيها ينصرف الفرد، أو يتخيل أنه يتصرف كفرد آخر بسبب عقدة نفسية، ويكون التصرف بغير شعور أو بشعور.

[٣٦] التحول عند المحللين، هو نشوء عاطفة إيجابية أو سلبية، الحب أو الكره عند المريض نحو المحلل النفسي، وتستعمل في معناها العام لتعنى تحولًا عاطفيًا من شخص إلى آخر. المترجم

وفي وسعنا أن نقبل كل هذه "الاكتشافات" بشأن أجهزة الأحلام وحيلها، ومع ذلك فإننا نرفض بتحفظ كل تفاصيل تفسير الأحلام كما في التحليل النفسي، فمن الجائز أن يكون المبدأ مقبولًا، ولكن تطبيقه موضع ريبة وشك، بل قد يكون سخيفًا.

وفي حالة ضم أحلام الرعب والنكبات وحتى الكابوس إلى القاعدة العامة للرغبات المكبوتة والأماني غير المستجابة، فإن فرويد لا يعترف إلا بالمنبع العاطفي العام للأمل والخوف؛ مما يفسر بجلاء مدى ضعف الحقيقة في العبارة التقليدية لكتاب الأحلام، وهي أن الأحلام تنطلق بأوضاع عكسية؛ فإذا كنا في خطر في البحر، وحلم أحد الناس بعمليات الإنقاذ، وحلم آخر بالغرق، فكلاهما يعبر عن الأمل نفسه أو الخوف نفسه. وإذا حدثت الأحلام نفسها في غير خطر، فإنها تدل على ميل انسى إلى تخيل حدوث مثل هذه الاحتمالات، ونحن نحلم بها بشكل يعبر عن الآمال والمخاوف.

والعواطف تضم اتجاهات متطاحنة، فهي في الوقت نفسه تحب وتكره، وتريد الخير للناس، وتسعى إلى تركيزه للذات. وفي هذا التطاحن من الجائز أن يعبر الحلم عن هذا الجانب من حالة الشعور المتناقضة التي تميل رقابة الشعور إلى التخلص منها. وما تعذر على فرويد أن يميزه تمييزًا تامًا، هو أن الأحلام كلها لا نتبع مسارًا متشابهًا لأن نفسية الحالمين تختلف. وهذا الموضوع هو محور بحوث "بيرس" فتبعًا لمزاج الفرد وطبيعته، فإنه يحتمل أن يظل محتفظة بشخصيته هي هي في

أحلامه وفي يقظته، أو أن يخالفها تمام الاختلاف لأنه غير راض عن نفسه، ويفكر في الأخرى على أنها الشخصية التي يريد أن يكونها

وفي تجربة أجراها «بيرس» على ثمانية عشرة حالمًا، نصفهم من الذكور، وجد أن شخصيات عشرة منهم تختلف في أحلامها عن يقظتها، ووجد ثمانية منهم يتفقون في العالمين. ولعله مما يوحى بشيء ما، أن هؤلاء الثمانية كانوا يتألفون من ست نساء ورجلين. وهي نتيجة تثير التساؤل عما إذا كانت النساء يتمتعن بنصيب أوفر من الانسجام مع أنفسهن، والرضى بحظهن، أو بنصيب أقل من الخيال. وعلى أية حال فإن الأحلام ظاهرة منطبعة بالفردية، وتنشأ إلى حد كبير عن الشخصية في مجموعها. وهي تمثل بشكل مستور الهرب من وجه الحياة النفسية الماثل في الخوف والرغبة والوهم.

ولا تكاد توجد عبارة أو حادثة أو استدلال أو إجراء مما يستخدمه مفسر والأحلام لتأييد بحوثهم، إلا وظفر بدرجات متفاوتة من التحقيق هنا وهناك وفي كل مكان، وفي عينات كثيرة أو قليلة من الأحلام العادية. وقد قبلنا الكثير من الآراء الفرويدية، ولكن المبادئ، المقترحة عندما تعم، وتحدد، وتشوه حتى تمثل معانيًا بعيدة، وعند ما تلخص في قواعد وصيغ ليست إلا مجموعة من آراء سابقة أجيد صوغها، وعندما يبالغ في تقدير الأهمية الكلية للأحلام وترقى إلى مرتبة تفوق حد قيمتها، عندما يحدث هذا كله، فإن الميل إلى الشك في البناء كله يجد ما يبرره.

الأحلام في التحليل

من المعلومات العتيقة أن الأحلام يحتمل أن تتضمن تعبيرات عن الدوافع البدائية المكبوتة بفعل الضغط الأخلاقي. وينقل فرويد من جمهورية أفلاطون قوله أن الرجل الفاضل ويقنع نفسه بأن يحلم بما يفعله الشرير في الحياة الفعلية، وفي المحاورة نفسها تجد تعبيرًا أوضح، إذ يقول أن اللذات والشهوات غير القانونية هي جزء أصلى في كل إنسان. وهي مما يضبط ويحكم عند العقليين، ولكنها قوية عنيدة عند آخرين. وهو يفسر أن هذه الشهوات وتنطلق في النوم عندما يغفو الجزء الآخر من النفس، وهو جزء أليف يسود الجزء الآخر الحيواني الذي إذا ما أشبع باللحم والشراب طغى، وطرد النوم، وحاول أن ينطلق لإرضاء نزواته الخاصة".

ومن هذا يتضح أن أفلاطون أدرك الدوافع والرغبات المكبوتة، والرقابة العقلية، وتحقيق الرغبات في الأحلام. وبهذا التأييد وتصير قطعة وجهة النظر الفرويدية محترمة على الفور، ولكن هذا التأبيد يكشف كذلك عن شيوعها. وهناك أيضًا تلك العبارة التي يرددها الناس كلها عرض عليهم اقتراح مغر فيرددون "ولا في الحلم". ولعله من الأصدق أن نقرر أن الفلتات يمكن حدوثها في الأحلام وحدها. وقد عرفنا دائمًا أن للأحلام مسئولية جزئية لأنها يحتمل أن تذيع ما نفضل إخفاءه.

ومن المسائل الجوهرية في استخدام فرويد للأحلام، موضوع المقاومة التي تعترض ما يحتمل أن يظهر في الأحلام؛ ومع ذلك فليست كل مواد الحلم من هذا النوع. ويعترف فرويد أن الأحلام البسيطة تتدفق

بحرية مطلقة، وأنها تحقيق واضح للرغبات. وتظهر هذه الحالة في الأطفال والأناس البسطاء الذين لم تظهر فيهم منظمة الكبت. والحلم على هذا الأساس قريب من الرغبة الشعورية أو الوهم والخيال.

ويروي فرويد عن أبنائه أنهم حلموا بتحقيق أجزاء من رحلات أجازتهم، وتمتعوا في أحلامهم بما حرموا منه في الواقع. ويروى عن البحارة عندما يطوفون في المناطق القطبية، حيث الوحدة ووجبات الطعام القليلة المتماثلة، أن حلمهم الشائع المنتشر يتناول المآدب الفاخرة، ومقابلة السفن، ولقاء الأصدقاء. وكل هذا معروف ولا يحتاج إلا لمزيد من التأكيد، فالرغبة أم الفكرة سواء في اليقظة أو في الحلم. وهما قريبان إلى درجة أننا نخلط بينهما في أمانينا ما يسميه "بلولر" Bleuler تفكير اجتراري Autistic Thinking[٣٧]. وقال أنه عامل هام في تأليف الأوهام عند الشواذ وغير المتزنين.

والحلم المحقق للرغبة ينسجم مع الإدراك العام للتفكير الذي يدور حولي الأماني، وقد صار من المبادئ الراسخة في علم النفس وطب الأمراض العصبية. فآراؤنا، وعواطفنا، وتحزباتنا، تنحني كلها أمام الرغبة. وإصرار أنصار فرويد هو الذي يجعل كل الأحلام تحقيق الرغبات المكبوتة بشكل ما. وهو ما يناهض الاكتشافات التي ظهرت من دراسة محايدة لمجموعة كبيرة تناولت الأحلام بين مختلف أنواع الرجال

(٣٧) التفكير الاجتراري هو النشاط العقلي الذي تحكمه رغبة الفرد، ويتعارض مع التفكير الواقعي الخاضع لما يفرضه الواقع. وقد استبدلها بلولر بعدئذ بكلمة Dereistic Thinking

والنساء والأطفال. وهذا الاصرار هو المسئول عن عدد كبير من الصفحات الخيالية في المؤلفات الفرويدية.

وضم الحلم إلى دائرة الرغبة ينطوي على ما يسميه فرويد بالتشويه Distortion. ولا ريب أن كل حلم يتشوه، فالعين الحالمة ترى الأشياء بعدسة غير منتظمة تلمح المرئيات في غير وضوح. وليس التشوه في الأحلام هو الذي يثير القارئ المحايد التحليل النفسي للأحلام، بل أن تفسيرها هو الذي يثير ريبته حيال المحلل، فيعده مسئولًا عن التشويه. ومرة ثانية تقرر أن المبادئ مقبولة، ولكن الاجراءات المرهقة لتفسيرها داخل نطاق القاعدة لا تجد ما يبررها.

ولا ريب أن ما يظهر بعيد الاحتمال بالنسبة للقارئ قد إلا يظهر كذلك للحالم عندما تتكشف أمامه العلاقات والارتباطات.

ومما يجعل تأييد الموقف صعبًا، إن لم يكن مستحيلًا، أن فرويد يصر على أن الارتباطات والعلاقات مغمورة في أعماق "اللاشعور" وإنها بعيدة عن متناول الحالم. وأكثر من هذا أن قوانين منطق ، اللاشعور، تختلف اختلافًا بينا عن المنطق الذي نستخدمه في حالة الشعور.

ومن الواضح بالتحليل النفسي أو بدونه، أن الأحلام النموذجية تعنى بالرغبات العامة، وتعبر عنها بطريقة فردية، وأن أكثر الأحلام شخصية خيرة الأفراد. والفرد وحده هو الذي يستطيع تقديم المفتاح الذي يكشف عن مضمونها. ولكن المحلل

يدعي أنه أنشأ طريقة ومشروعًا شرعيًا لمساعدة الحالم على استرجاع الصلات التي تربط بين الأحداث العابرة والدوافع العميقة.

وهو يطلب إلى الحالم أن يتناول أجزاء الحلم واحدًا واحدًا، ويصف في حرية مطلقة كل ما تثيره في عقله الكلمة أو الاسم أو المكان أو القصة، وبتتبع الدلالات واحدة بعد الأخرى ينبثق المعنى الكامن؛ فإذا كان الحل مرضيًا للحلل، ومقبولًا من المريض أعتبر الحلم كأنه قد تم تفسيره.

ومن الواضح كل الوضوح أن هذا الأجراء عمل مختلط من مساهمة الحالم وتفسير المحلل، مما يحتم تعرض الوسيلة نفسها لقدر كبير من الريبية (وأنا أعرف أن اتباع فرويد ينكرون هذا بطريقة جازمة، ولهذا فيجب أن أقابل الإنكار بالإنكار). وبهذه الطريقة يستطيع المرء أن يثبت أي شيء أو لا شيء على الإطلاق، أو يثبت الكثير أو ما هو أقل من القليل.

وحيل تركيب الحلم التي تكشف بهذه الطريقة حقيقية، بمعنى أنها تصدق في بعض الأحيان بطريقة تتفاوت في درجة تفككها، وفي أحيان أخرى تصدق وتنطبق بطريقة مذهلة. ولندع القارئ فرصة اختبار بعض الأمثلة، ليحكم بنفسه على متانة الرباط بين مادة الحلم وتفسيره، وإلى أي مدى كان اكتشافه من صنع الحالم أو المفسر.

الحلم: شاب في زيارة قصيرة لأسرة جذابة، ويحلم بأن بصيلات الزهور التي زرعت أخيرًا في المنزل ترسل جذورها، ثم نمت وأزهرت.

التفسير: أنه يرغب في إطالة زيارته، فأن نمو البصيلات يحتاج إلى وقت. وهو يحلم بأنه سيبقي، حتى ترسل جذورها، وتنبت زهرها. ويضيف المحلل أن الرغبة في هذا الحلم واضحة كل الوضوح، وهذا جائز وغير جائز فثم عشرات من التفسيرات الأخرى يمكن قبولها.

حلم آخر: حلمت امرأة بأن شقيقها سيشنق. وهي رغبة من العسير أن تكون الأخت، والفكرة منكرة للغاية "وعمل الحلم" كما أظهره التحليل معقد كل التعقيد، فإن الأخ في الحلم لم يكن أخًا حقيقيًا، بل كان "أخًا" يتكون من أخوين، توفي أحدهما من ثمانية أعوام بمرض السل، وتوفي الثاني من أربعة أعوام بمرض السرطان. وقد حدث الحلم على أثر إجراء الحالمة لجراحة استئصال ورم ثبت أنه لم يكن خبيثًا، ولكنه كان مصدر قلقها. وكانت قلقه أيضًا من سعال ملح ينتابها، مما أثار ريبتها في أنها مصابة بالسل، كما أثار الورم شكها في أنها مصابة بالسرطان. وكانت تعتقد أن المرضين وراثيين[٣٨].

[٣٨] ليست هذه الأمراض وراثية، ولكن هذا اعتقاد المريضة. (المترجم)

التفسير: كانت رغبتها الحقيقة أن لا يكون شقيقاها قد توفيا بأمراض وراثية ليريحاها من القلق؛ «والواقع أنه حتى الشنق كان أفضل فيما يتعلق براحة بالها».

والتفسير بارع يتحدى أي إنسان أن يخترع أفضل منه، وليذكر القارئ أن فرويد فسر لمرضاه أن أحلامهم تحقق رغبات مكبوتة، فإذا ما احتجوا حصل منهم على ارتباطات أخرى وحللها في تفسير يثبت وجهة نظره.

حلم ثالث: حلمت السيد "أ" بأنها تريد إقامة مأدبة عشاء، ولكن مسكنها كان خاليًا إلا من بعض سمك السالمون المحفوظ. وتعذر عليها أن تشتري أي شيء من السوق، لأن اليوم كان يوم أحد، والحوانيت مغلقة. وحاولت أن تستخدم التليفون في الاتصال برجل مهمته جلب المؤن، فكان التليفون معطلًا، ولم يكن من مفر من إلغاء المأدبة.

التفسير: أخبرها زوجها في اليوم السابق بما يعانيه من بدانته، وأنه قرر أن يمارس الألعاب الرياضية ويسير وفق نظام تغذية خاص، فيمتنع عن تناول طعام العشاء، (قالت الحالمة إنها مغرمة بزوجها وتحب معاكسته). وكانت هي تحب تناول، شطائر "الكافيار" في الضحى، ولكنها خشيت كثرة النفقات، فطلبت إلى زوجها إلا يرسل إليها أي شيء منه، رغم أنه كان تاجر جملة لأنواع المون، وكان في وضع يسمح له بتحقيق ما تريد، ولكنها آثرت مداعبته ومعاكسته بالرفض. وهي دعابة بريئة مفهومة.

تفسير أعمق: ورأى فرويد أن هذا التفسير سطحي، وأن البواعث النفسية التي تكشفت فيه غير مقنعة، فعمد إلى مزيد من الاختبار حتى وصل إلى ما هو أعمق. وروت السيدة "إنها زارت صديقتها السيدة «ب» في اليوم السابق للحلم وكانت "أ" تغار من "ب" لأن زوج "أ" كان كثير الإطراء لـ "ب" التي كانت نحيلة، وتود أن تزيد وزنها، وفي أثناء الزيارة سألت "أ" عما إذا كانت ستدعوها ثانية إلى مآدب عشاءها الحافلة بأصناف الطعام. ويقول فرويد، الآن اتضح معنى الحلم بجلاء، فإن زوج السيدة "أ" يحب القوام الممتلئ المتناسق، وكأن الحالمة قالت لصديقتها في سخرية "تريدينني أن أدعوك لتأكلي، ويسمن جسمك في منزلي، فتصيرين أكثر أغراء لزوجي، أنت في هذه الحالة أفضل إلا أقيم أية مآدب عشاء، وهكذا وفي الحلم حلت مسألة التغذية.

ويعتقد الفرويديون إن كل حوادث الحلم وخواصه محتومة ولكي يتضح تفسيره تضاف دلالات أخرى، فالحلم يعزز من نواحي عدة Overdetermine.(٣٩) أو بمعنى آخر يروي القصة نفسها بطرق متعددة، فيعزز الموضوع بتفصيلات مؤيدة.

خاتمة: لم تفسر مسألة "السالمون" وقد دل الاستمرار في التحليل على أن « السالمون» المدخن هو الطبق المفضل عند السيدة "ب"؛ وأكلتها المحبوبة في الصباح هي شطائر السالمون. على أن هذه

(٣٩) Overdetermine تعبير في التحليل يدل على تعاون أكثر من دافع ومؤثر لنشوء أعراض الأمراض العصابية التي: يكفي دافع واحد لأحداثها. وتعني في الأحلام تجمع أكثر من دافع أو مؤثر من أفكار الأحلام الكامنة. المترجم

المفاجأة لم تفرغ جعبة عبقرية فرويد، فأضاف تفسير آخر، وهو أن السيدة «أ» تقمصت شخصية السيدة "ب" وتبعًا لمنطق الأحلام، فهي تحلم بأن رغبتها الخاصة لم تتحقق في مقابل تحقيق رغبتها الحقيقية، وهي أن لا تتحقق رغبة صديقتها. فهل هذا حذق السيدة "ب" أو حذق فرويد؟.

وهذه الحكايات قد تلقي ضوء غير متعمد على العادات الاجتماعية في فينا سواء في المطبخ، أو في العلاقات الزوجية، كما تلقيه على تفسير الأحلام. ويصر فرويد على أننا لا نحلم البتة بالتوافه، بل نحلم فقط بالمسائل العميقة والحلم التالي قد يبين إدراك أهمية هذا الموقف من الحوادث في حياة الحالمين

حلم لا يتفق مع المبدأ: وفي مرة أخرى تحدت إحدى المريضات مبادئ فرويد وطريقة الأحلام في تحقيق الرغبات وقدمت حلمها على أنه لا يتفق مع المبدأ. فقد حلمت أنها كانت مسافرة مع حماتها إلى مصيف حيث استأجرت (في الحلم) كل منهما "فيلا" فحرصت على أن يكون مسكنها بعيدًا إلى أقصى حد عن مسكن حماتها.

التفسير: وقال فرويد أنا مخطئ هو رغبتها الفعلية. وهذا ما حققه الحلم لها.

وسواء سارت الأحلام بالعكس أو غيره، فإن هذا الحلم يبين لفرويد إلى أي مدى يحلم الناس "بالعكس" ومن الواضح من هذا العرض أن المميزات كلها في صف المحلل، وهو الذي يقول الكلمة الأخيرة وعنده فصل الخطاب.

وعندما تكشف الأحلام عن عامل الكبت بطريقة غير مباشرة، وبالتحريف، وبعناية وحذر، وبشكل مقبول، فإنها تنطلق إلى مدى بعيد في قص النوادر، والتلاعب بالعواطف التي تشيرها. ومن الصعب أن نتوقع ونعرف مدى ما سيعده "اللاشعور" من أنواع التنكر الخبيثة الماكرة والبسيطة. ويرى الفرويديون أن الحلم بوفاة شخص عزيز يحتمل أن يكون رغبة نكبتها في موقف تتطاحن فيه العواطف المهمة المتناقضة، كالحب والكره لشخص واحد. وفي هذا الموقف أيضًا يحتمل أن يكون الحالم في حالة ذهنية مائعة. ومع ذلك فهم يرون أيضًا أن الحلم بمثل هذه الوفاة يكون قناعًا يخفي انفعالًا حبيباً إلى النفس، ولكنه محرم عليها.

حلم مبهم: حلمت فتاة بأن "تشارلس" طفل شقيقتها يرقد ميتًا في كفنه، والشموع موقدة حوله، كما كانت عند وفاة أخيه "أوتو" من عدة سنوات مضت، ومن المؤكد أنها لا ترغب في وفاة الابن الوحيد الحي لشقيقتها.

التفسير: بتأثير طريقة التداعي الحر وجدت الحالمة دلالات الحلم؛ فقد توفي والدها في بدء حياتها وتولت شقيقتها تربيتها، وفي

بيتها التقت بشاب أحبته، ولا سباب ما رفضت شقيقتها أن تسمح بزواجهما. وكان الخطيب أدبيًا معروفًا لم تستطع الفتاة نسيانه. فكان إذا حاضر في مكان عام هرعت لتسمعه. وفي اليوم الذي رأت فيه حلمها، كانت تعرف أنه سيحضر حفلة موسيقية، فدبرت أمرها لحضورها هي أيضًا. وكان من المناسبات التي قابلته فيها جنازة "اوتو" الصغير؛ وقد أرادت تحقيق هذه الرغبة في جنازة الشارلس "حتى يتيسر لها مقابلة خطيبها. وقد أقنع هذا التفسير الحالمة فإلى أي مدى هو حلم لا شعوري؟.

حلم أخر غير طبيعي: وفي حلم مثل حلمت مريضة بأبنتها وهي في الخامسة عشرة من عمرها مسجاه ميته في صندوق أمامها.

التفسير: في أثناء التحليل تذكرت مناقشة بشأن المعاني المختلفة لكلمة صندوق Box في اللغة الإنجليزية، إذ تعني "لوجا" في مسرح، أو لكمة على الأذن، أو صندوقًا. وضايقها أيضًا معناها المبتذل الذي جعلها مرادفة للأعضاء التناسلية في الإناث "، كان من الممكن بشيء من التساهل في نظرتها إلى علم التشريح الطبوغرافي أن تقرر أن الطفلة في الصندوق تعني "طفلًا في رحم الأم". وفي هذه المرحلة من التفسير لم تنكر أن صورة الحلم تتفق مع إحدى رغباتها، فعندما كانت حاملًا رغبت في موت الجنين قبل ولادته، فالطفلة الميتة كانت إذن تحقيقًا لرغبة تخلت عنها من أربع عشرة سنة. وليس من الغريب أن لا تميز الرغبة بعد مرور كل هذا الزمن فقد حدثت تغيرات عدة.

ويلاحظ أن المفسر ملك امتياز فحص كل ما مر بالمريض من حوادث وتجارب، ومنها يستخرج الواقعة التي تتلاءم مع تفسيره.

أحلام رغبة معكوسة: وهو حلم مائي جميل لفتاة مريضة. وفي مجال العلاج كان لهذا الحلم أهمية غير عادية. فبينما كانت الفتاة في مصيفها على بحيرة ما، قفزت في الماء المظلم في مكان تنعكس على صفحته صورة القمر الباهتة.

التفسير: هذا نوع من أحلام الولادة، ويفسر بقلب أوضاعه الظاهرية، فبدل أن تقول "قفزت إلى الماء" تقول خرجت منه "أي" ولدت... والآن ماذا تعني المريضة برغبتها في أن تولد في مصيفها؟ وجهت إليها هذا السؤال، فأجابت في غير تردد «أن العلاج يجعلني كأني ولدت من جديد». وهكذا أصبح الحلم دعوة لاستمرار العلاج في المصيف، أي أن نزورها هناك. ومن الجائز أيضًا أنه تلميح شديد الخجل إلى رغبتها في أن تصبح أما.

هذه الأمثلة المنتخبة ستؤدي الغرض الذي ترمي إليه، وهو توضيح أن طريقة فرويد تسعى وراء الظفر برباط يربط مواد الحلم وتفسيراتها. ويؤكد فرويد لقرائه أنه بهذه المعلومات عن الأحلام وأكتشف، طبيعة ألوان الصراع والعقد النفسية في مرضى العصاب. وهو واثق أيضًا من أنه لم يلقن مثل هذه الارتباطات أو يوحي بها، أو يستدعيها. ومن الطبيعي أن القارئ الدقيق الحذر لا يستطيع أن يشاركه في ثقته هذه. وفي رأي فرويد أن هذه المبادئ نفسها تصدق على أحلام السويين العادية. وهو

يؤكد تعدد المقومات الجنسية التي تكاد تكون دائمة، وإعادة صوغ الأحداث من عهد الطفولة المبكرة، وهذه الأحداث ارتبطت بصدمات عاطفية ذات صبغة جنسية كالعادة.

وهو يقرر أن ما بقي محايدًا فعلًا لا يمكن أن يعاود الظهور في حلم. ونحن لا نحلم عبثًا أو لأمور تافهة، وأينما اتجهنا نجد ما هو محتم، فلا شيء محايد في الحلم. وهذه عقيدة هامة عند مفسر الأحلام الفرويدي، وإن تكن مثار جدل كثير. فالحلم عنده ليس تسلية، أو لهوًا، أو فترة راحة للاستجمام. «ونوبة» الحلم لا تعمل إلا في الليل، وعندما تنتهي ساعات عمل الرقيب، فالحلم كاللص ينتظر هدأة الليل، ويتسلل إلى « اللاشعور». وقد علمتنا التجارب أن الطريق من الشعور الأمامي إلى الشعور تغلق في وجه أفكار الأحلام خلال النهار بفعل مقاومة الرقيب.

ورغم أن التحليل النفسي كثير المبالغة متطرف في حالاته التطبيقية، ويناقض مبادئه نفسها، فإن تفسير الأحلام أدى إلى الكشف عن العقدة النفسية، فنظرية فرويد عن الأحلام تتضمن حقائق هامة تقدم بها فهمنا للناحية الحالمة من حياتنا (وربما الناحية الوضيعة أيضًا).

الأحلام المعاودة والرمزية

للرمزية مركز ممتاز في القصة الفرويدية، ومركز أكبر في فهم "يونج" Jung للحياة النفسية. ومن زمان بعيد عرف الناس أن عملية

التفكير بالرموز عملية بدائية، ولكن فرويد أحيى هذه الناحية؛ فللإنسان عقلية تعمل بالرموز. وكلنا يشعر بالتشبيهات، ويراها، ويسمعها في الكلمات، ويتلاعب بها لما انطوت عليه من خاصية المسرة والجذب؛ وهي تتفق مع الحالة البدائية التي كان عليها العقل. فالتفكير عملية تكوين صور عقلية؛ والتصويري يسبق اللفظي، والمخيلة تعنى بالنواحي الواقعية، وترقي بالصورة إلى حد المثالية. وعندما ننساق مع التفكير، ونجول مع الأماني، فإننا نقترب من حالة الرمزية.

وقد حول فن التخاطب الإنسان البدائي إلى صانع رموز، فإن الدافع إلى التفسير يحفزه إلى تأليف الأساطير، والإيمان بالرموز، فهو في مجموعه يعشق الرموز، ولولا قدرته على أن بجعل شيئًا يمثل آخر لما استطاع أن يفكر. فالأسطورة والخرافة تستمدان إغراءهما من نبع واحد، وكلتاهما تطلق عنان الخيال ليجمع الأطراف المتناثرة المتباعدة في صعيد واحد. وقد أحسن من قال إن الأساطير تمثل أحلام الشعوب.

وقد أضاف فرويد إلى الرمزية إغراء جديدة بقوله، إن الأحلام تلجأ إلى الرموز التخفي الأغراض التي يحظرها المجتمع. وهو مبدأ عرفه أفلاطون أيضًا. وبما أن عقولنا تتشابه في كثير من نواحيها، فمن الجائز أيضًا أن نؤلف رموزًا متشابهة. ومع ذلك فإننا كما قال هر قليتيس Heraclitus نشترك في عالم اليقظة، أما في الأحلام، فإن كلا منا يلجأ إلى عالمه الخاص. وقد تكون أحلامنا فقيرة، ولكنها تخصنا على أية

حال. ونحن نحلم وفينا شيء مشترك هو الطبيعة البشرية مما يجعل فينا شيئًا من التشابه في الأحلام، فلنا جميعًا أحلام متوازية وأخرى متشابهة.

أما مدى اشتراك البشر في رموز الأحلام وطريقتها، فمسألة قديمة، ولا تزال مثار التساؤل. وقد صارت الرمزية لغة الخيال ولهجته في التعبير عن نفسه، لأن الأحلام تتردد وتتكرر بفعل الدوافع المشتركة، ولأنها تظهر في أشكال مشتركة كذلك. وفي هذه الأحلام يجد المحلل الفرويدي رموزًا عامة شاملة، وأخرى شخصية. فهو يجد رموزًا مشتركة في الأحلام والأعمال والعادات العقلية، وفي الشعر والمسرحيات والفنون عامة. وهي كلها من مظاهر العقلية المجازية والسرية إلى حد ما. وبسبب هذه الصفة استخدم علم النفس الفرويدي عبارة الترقي الأخلاقي(٤٠) Anagogic فإن الرمزية وبعض التفسيرات الحديثة لوظائفها احتلت مكانها في علم النفس بفضل التحليل النفسي.

والأحلام تعمل بالتشابه الإيحائي، وخاصة عندما تتساوى القيمة العاطفية. وبمجرد وجود الأحلام الطرازية يعتمد على الرمزية العامة. وهذه الأحلام هي التي يتردد موضوعها ويتكرر وأن اختلف في تفاصيله، كتلك العينات التي وجدها فرويد في سهولة ويسر في مرحلة أوديب. ومنها وجد أيضًا نماذج طبق الأصل في عالم الأحلام. وتتغير الصور، ولكن المعنى واحد، وإلا لتعذر على المفسران يفهمها، أو يجد قاعدة لتعميمها. ومن العقبات التي تعترض تفسير الأحلام مسألة تقرير مدى

---

(٤٠) "الترقي الأخلاقي" لفظة أستخدمها "يونج" لاتجاهات اللاشعور التي تعمل على السمو بالنواحي الأخلاقية.

كونها فردية أو عامة. فالرموز أداة ثانوية في تفسير الأحلام على طريقة فرويد ..

ولتلخيص الموقف نلاحظ أولًا أن الأعراض المرضية والأحلام والفلتات التي تحدث في حياتنا اليومية، كل هذه لها معان تفهم وفقًا للقواعد الفرويدية. وثانيًا أن هذه القواعد يحتمل أن تبدأ عن طريق رمز من الجائز أن يكون رمزًا شخصية لا يعرف معناه إلا الشخص نفسه، ومن الجائز أن يكون رمزًا عامًا يشترك فيه كل الناس.

والأحلام التي ذكرناها، توضح ألوانًا من الرمزية. ومن الجائز أن يضاف إليها غيرها مما يتصل مباشرة بهذه العلاقة. والطيران في الحلم من المشاهد الشائعة بين الناس. وبعض محللي الأحلام يجدونها ترمز إلى الطموح، وفريق آخر يراها ترمز إلى الرغبة في الانطلاق من القيود الاجتماعية المرهقة. والرمزية واضحة في الاتجاهين، وفي كثير غيرهما من التفسيرات. ولكن يجدر بنا أن نذكر أن الطيران كما نحلم به إحساس جسماني، وكثيرون يستطيعون وصف شعورهم بدقة عندما يطيرون، ويصفون كيف يسيطرون على إدارة أجنحتهم، لأن نفوسهم الحالمة تجد لذة فائقة في هذه العملية.

وهذا الموقف يثير التساؤل عما إذا كان الطيران مجرد تفسير وهمى لتغيرات عضوية فسيولوجية، فمن الجائز أن يكون تغييرًا أو تحولًا في عمل الرئة. ومثل هذا أيضًا أحلام السقوط التي يحتمل أن تنشأ عن إحساس الجسم بفقد سند له. ولم يتجاهل فرويد الناحية الجسمانية

تجاهلًا تامًا كعامل لإثارة الأحلام، ولكنه فضل عليها التفسير الرمزي الذي يعزوه كعادته إلى عوامل جنسية؛ فالسقوط في عرفة هبوط عاطفي أو أخلاقي. وأحلام السقوط تتبع فكرة "المرأة الساقطة"، وبالطريقة نفسها تظفر الأشياء بقيمة "رمزية".

وفي وسعنا أن نكون بمأمن مطمئنين، ونفسر الأحلام تحذر، وفي وسعنا أيضًا أن نتطرف؛ ونلجأ إلى كتب تفسير الأحلام الشائعة. فالسلم المتنقل مثلًا شيء عادي في الأحلام، وقد يمثل الصعود. أو الظهور في العالم، فيرمز إلى الرقي، ولكن فرويد يفسره في عبارات جنسية. وكذلك أيضًا يصير البيانو شيئًا جنسيًا لأننا نلعب عليه بعض الأنغام المتدرجة كالسلم الموسيقى. وقد صار الجنس هو المرجع المفضل للرموز بسبب التحريم البات للحديث عن المسائل الجنسية، وبسبب تأثيرها الوجداني القوى على الناس. والتنكر الرمزي يفلت "رقيب النفس الباطنية" [٤١] Endopsychic Censor وهو الحارس الداخلي المكلف بالرقابة. وفي هذا المجال يحسن أن نورد بعض ما قاله فرويد. وقد استخدم ألفاظًا جنسية صريحة نؤثر أن نستبدلها برموز فنضع علامة (+) لعضو الذكر، وعلامة (–) لعضو الأنثى[٤٢].

"كل الأشياء المستطيلة كالعصى، وجذوع الأشجار والمظلات (باعتبار امتدادها صعدًا) ... وكل الأسلحة والسكاكين، والخناجر،

---

[٤١] النفس الباطنية إجراء في اللاشعور ويخالف إجراء الشعور في ابتكار الأفكار مثلًا.

[٤٢] استخدم المؤلف رمزي المريخ والزهرة.

والخراب المستطيلة.." ولأسباب أخرى، مبرد الأظافر، يرمز إلى (+) والعلب الصغيرة والصناديق، وعلب الجواهر، والمواقد ترمز إلى (−) والحلم باختراق صف من الغرف يرمز إلى ماخور أو حريم. والسلالم الثابتة، والمتنقلة ودرجاتها، وصعودها أو هبوطها ترمز إلى العملية الجنسية.

"الجدران الناعمة التي يتسلقها الإنسان في حلمه، وواجهات المنازل التي يتدلى منها بقلق عظيم في الغالب، تقابل الجسم البشري المنتصب، وربما تتكرر في الحلم ذكريات تسلق الأطفال الصغار لآبائهم. والجدران الناعمة رجال. وفي أحلام القلق يغلب أن يمسك الحالم بقوة بجزء ناتئ من المنزل. والموائد المعدة والألواح الخشبية تمثل النساء، ولعل هذا راجع إلى تجاهل تفاصيل الجسم، وأن الفراش والطعام يرمزان إلى الزواج، فالأول يظهر مكان الثاني في الحلم، ووفقًا للأوضاع العملية فإن العقدة الجنسية تحتل مكانها عقدة تناول الطعام. أما في مسألة الملابس فأن قبعة المرأة هي (−). وفي أحلام الرجال نجد رباط الرقبة (+) لأنها تعلق متدلية طويلة، وهي من ميزات الرجال، ولأن الفرد يستطيع اختيارها وفقًا لمزاجه. وهي حرية، "تكفها" الطبيعة في أصل الرمز. والأشخاص الذين يستخدمون هذا الرمز في أحلامهم من الشغوفين بأربطة الرقبة، ويملكون منها بمجموعة كبيرة في العادة.

ولتوضيح الموقف في أمريكا حيث تستخدم لفظة Necktie أي رباط الرقبة، وجد مترجم فرويد من الألمانية أن هذا الرباط يرمز كذلك

إلى امرأة متعبة كان الحالم مشوقًا إلى الخلاص منها، فهي رباط ثقيل معلق في رقبته. وقد كان الحلم لرجل فسخ خطبته من خطيبته.

ومن المرجح في الحلم أن ترمز كل الآلات المعقدة والأجهزة إلى الأعضاء الجنسية، وقد أظهرت رمزية الأحلام براعة فائقة في وصفها. والمناظر الطبيعية في الحلم ولا سيما ما يتضمن منها قناطر وجبالًا بها غابات هي أيضًا أعراض للأصل نفسه. بل أن أحد تلاميذ فرويد كان من الشجاعة والإخلاص لمبادئه (أو لعقدته النفسية) فوجد في محي التنقل بين الغابات والأشجار الباسقة ميلًا جنسيًا قويًا. وإذا أحس الحالم بشعور قوي، بأنه سبق أن شاهد ذلك المنظر (ظاهرة معروفة تعزى إلى أوهام الذاكرة)، فإن ذلك يرمز دائمًا إلى رحم الأم.

وتعذر على فرويد فترة طويلة أن يفسر "أحلام آلام الأسنان ومضايقاتها، بسبب قوة ومقاومتها للتحليل". وأخيرًا أقنعته الأدلة الكثيرة الحاسمة، بأنها في حالة الرجال تعني "لا شيء إلا شوقهم إلى ممارسة العادة السرية" ومن الجائز أن يطبق التفسير نفسه على الحلم بخلع الأسنان. أما تلاميذ فرويد، كيونج ورانك Rank، فيناقشون هذه المسألة بعلم غزير، وفي إسهاب، فيرى يونج أن مضايقات الأسنان عند النساء ترمز وتشير إلى عملية الولادة. وهو يؤول تفسيره إلى الاعتقاد الشائع بأن ولادة كل طفل معناها خلع إحدى الأسنان، وإلى اعتقاد آخر يقول إن المرأة الحامل تلد ذكرًا إذا آلمتها أسنانها. أما تفسير ورانك فيشير إلى فترة تبديل الأطفال لأسنانهم، وهو تفسير معقد ولا يسهل تلخيصه.

واصطناع الفرويديين للرمزيات مسألة لا نهاية لها، وتكفينا هذه الأمثلة لتوضيح كثرة تنوع الرموز في الأحلام وغيرها من الأوضاع الفرويدية. وقد اختيرت هذه الأمثلة، وفرضت كالتفسيرات نفسها، وسنعرض للمسألة الرمزية مرة أخرى بنقد أعمق عند ما نتناول بالتقدير مركزها المنطقي لأنها تثير سؤالاً جوهرياً عما إذا كان أي نظام يعتمد على مثل هذه الأدلة الواهية المتقلبة يظفر بأية قيمة علمية، وعلى أية حال فإن الرمزية والعلم كالزيت والماء لا يندمجان مهما رأى الفرويديون أن هذا المستحلب مستساغاً. هذا هو تفسير الأحلام عندهم، وهذه هي نظريتهم كما يطبقونها في المجال العلمي.

أفعال لها دلالتها

في البيت الذي بناه فرويد مواد بناء أخرى.... حجارة رماها أو أهملها البناؤون الآخرون لعلم النفس، وقد رأينا علم تنفس لأمراض العصاب، ثم آخر للأحلام؛ ونواجه الآن الإجراءات العارضة، وكلها تخضع لنظام الحتمية، والبواعث. وكلنا نعرف تلك الأفعال والتصرفات والهفوات التي ترتكب في غفلة دون تفكير سابق، أو بنصف نية، وهي تظهر كتصرفات عارضة "ولكنها بواعث مكبوتة تشق طريقها إلى الشعور بغير استئذان، فإذا ما تم فعلها، أو قولها، تنبهنا إليها، فتبدو لنا في بعض الأحيان مذهلة محيرة لأنها أفلتت، وكنا نود لو تصرفنا تصرفاً آخر، أو قلنا غير ما قلناه.

وأبسط تسمية لهذه المجموعة المختلفة من التصرفات التي تكشف عن غير قصد عن بعض البواعث النفسية هي والفلتات Lapses، وقد سميت أيضاً، "بالأخطاء" Errors، والهفوات Slips، والزلات Mistakes. وهي تؤلف مادة موضوع "علم الأمراض النفسية في الحياة اليومية" Psychopathology of Everyday Life.

وهذه المساهمة الشعبية اتجاه جديد لتشخيص الأحوال النفسية للعقل بتعقب المعاني الخفية في أعمالنا الصرحة كالزلات والأحداث العارضة والنسيان، وما نؤديه، وما نهمله؛ وهي كالأحلام، لها محتويات ظاهرة نعنيها ونجهر بها (وأخرى خفية نصف مقصودة ولكن ينبغي كبتها)، ولكن هذه المحتويات تظهر، وتقتحم طريقها إلى العضلات، ومنها عضلات الكلام، وكذلك بقوه الدافع الكامن أو بسبب الغياب المؤقت للرقيب.

وقواعد تفسير هذه الفلتات تسير موازية لتلك التي تفسر الأحلام، ولكن الفلتات تعمل عادة من مراكز أكثر قرباً، من مستوى الشعور، وقد تكون قواعدها أكثر تفاهة من القواعد الخاصة بالأحلام، ولكنها مفيدة من حيث توضيح الإجراءات الفردية إذ تنير لنا الطريق كما تفعل قواعد تفسير الأحلام. وهي أيضاً متعددة الاتجاهات في حبكتها وإحداثها. ومن المسلم به وجود عامل الرغبة في الأحلام، والتعدد في الرمزية، وحيل العقل الغريبة. وقد تيسر لعقل فرويد الخصب أن يميزها، ولكن الريب نفسها تعود وتساورنا بشأن المدى الذي يجوز للإنسان أن يبلغه

في تعقب الصلة بين ما عمل أو قيل (أو ما لم يعمل ولم يقل)، وبين ما كانت النية متجهة لعمله أو قوله فعلاً.

ولنبدأ بسرد بعض الأمثلة البسيطة المقبولة إلى حد ما والمقتبسة من فرويد.

فلتات مهنية: يروى الدكتور فرويد أن عدداً من زملائه الأطباء يحاولون بين الحين والآخر فتح أبواب عياداتهم أو مكاتبهم بمفاتيح مساكنهم. ولم يحدث العكس البتة، مما يدل على تفضيلهم حياة الفراغ في منازلهم على حياة العمل في أداء واجباتهم الدقيقة التي تكلفهم عناء ومشقة.

وفي إحدى المرات زار فرويد أحد مرضاه، ووقف على الباب، وبدل أن يضغط على زر الجرس، فإنه أخرج مفتاح مسكنه. وهو يعزو هذا الخطأ إلى رغبة رمزية من "اللاشعور" إذ تريده أن يكون "بمنزله"، لا عند المريض.

وفي مرة ثانية زار مريضاً يسكن في منزل به مجموعة شقق كثيرة، فصعد إلى طابق فوق طابق مسكن مريضه، وضل الطريق وهو سابح في حلم طموح من أحلام اليقظة. ولم يفسر هذه الفلتة على أنها عدم انتباه، بل على أنها نتيجة حنقه على النقد الكثير الذي كان موجها إليه وقتئذ، وقول النقاد إنه تجاوز المعقول في آرائه، فتجلى أثر ذلك في فعل رمزي

هو الصعود إلى أعلى مما يجب. وهكذا فسر هذا الطموح بلغة التصرفات الفرويدية على أنه صعود بضع درجات من سلم منزل.

وقد يرى بعض القراء في هذا الحدث بالذات أنه اشتط في تفسيره. وسيزيد عدد هؤلاء الناقدين بسبب المثل التالي.

الحدث: هم فرويد بمغادرة منزله ليلحق بالقطار ويزور أحد مرضاه، فأقبل على مكتبه ليأخذ منه مطرقة اختبار الأفعال العكسية في ركبة المريض، ولكنه أخطأ وتناول الشوكة الرنانة. وكلتاهما من أدوات الفحص.

التفسير: وجد فرويد لهذا الخطأ في التناول سبباً عميقاً يحتاج إلى تحليل واسع النطاق لما يجري في لا شعوره، فإن الشوكة الرنانة استخدمت أخيرة في فص قدرة السمع عند طفل ضعيف العقل. فهل تعني هذه الفلتة أن فرويد كان معتوها؟ ربما كان هذا جائزاً، فقد كانت الحالة التي سيفحصها لمريض سقط من الشرفة، وظهر أنه أصيب بشلل، واستدعى فرويد ليقرر إن كانت هناك إصابة في العمود الفقري، أو هي مجرد عجز هستري. وثارت ذكرى أخرى، وهي محطة السكة الحديدية التي سبق أن أستقل منها القطار في مناسبة أخرى عندما أخطأ بعض الخطأ في تشخيص العلة، ومن ثم كان تناول الشوكة الرنانة بدلاً من المطرقة يعني "أيها المغفل، أيها الحمار لا تكرر هذا الخطأ"!

وعلى هذا كانت زلة طائشة من اليد موضعا لتدخل اللاشعور ليحذر فرويد تحذيراً واقياً.

حدث شخصي: لم يعتبر فرويد نفسه غير رشيق في حركات لأنه نادراً ما كسر أي شيء، رغم أن مكتبه كان يحمل مجموعة ثمينة من التحف الفنية. ومكتب هذا شأنه يتعرض لكثير من حوادث الكسر. وهو ما لم يحدث البتة بمكتب فرويد. وفي أحد الأيام، وفي حركة رعناء من يده أطاح بالغطاء المرمري لمحبرته إلى الأرض. فلماذا وقعت هذه الحادثة؟ لابد من وجود سبب.

التفسير: كان من ساعات يطلع شقيقته في زهو على مقتنياته الحديثة، فشاركته في إعجابه بها، ثم قالت "أن كل ما على المكتب جميل إلا المحبرة، فإنها لا تنسجم مع بقية هذه الأشياء". وعقب عودته من نزهة معها. "نفذ القضاء في المحبرة الملعونة".

وكان لهذا النقد الهين أثره في نفس فرويد، فاندفع من اللاشعور، وتجلى في فعل له دلالته. ويعترف فرويد بأن فيه ميلاً إلى الاندفاع في الأعمال، وهي علامة مرغوب فيها للتحرر من قيود الحظر.

حدث: كان أحد أفراد الأسرة يعاني من مرض خطر، ثم جاءت الأنباء بتجاوزه مرحلة الخطر. وفي لحظة اغتباط ركل فرويد خزانة أحذيته فأسقط تمثالاً مرمرياً جميلاً لفينوس من مكانه على الحائط.

التفسير: كان هذا الحدث الذي يغالى فرويد في وصفه "بالحادثة تقدمه شكر. وكان اختيار تمثال فينوس دليل ولاء عميق إلى الشخص الناقه.

حدث: وفي مناسبة أخرى كسر تمثال مصري صغير مطلي بالزجاج بينما كان فرويد يكتب خطاب اعتذار لصديق بعد أن هاجمه فرويد لتطرف في تفسير بعض أنواع السلوك، واتخاذها كدليل على وجود صفات غير مرغوب فيها.

التفسير: اعتبر فرويد الكسر بمثابة "تقدمة دينية لتجنب بعض الشر "...ولحسن الحظ أن الصداقة والتمثال يمكن جبرهما فلا يلاحظ الكسر".

ويظهر أن هذه الطريقة في تفسير أحداث حياتنا اليومية ذات أضرار ومنافع، وقد تبدو مسلية ولكن هل هي علية؟ أو على الأقل، هل هي مقبولة كلعبة تأملية تتم داخل المنازل؟.

ولا يقتصر التفسير على ما يبدو حدوثه مصادفة، بل تمتد إلى ما نتركه دون عمل. فيفسر هذا أيضاً على أنه يدل على أن التيارات العميقة التي في اللاشعور هي التي قررت شبه القصد الذي دفعنا إلى إهمال مالم تفعل. فالنسيان يتضمن جزءا من عملية القمع، فالأشياء لا تسقط من حساب العقل بسهولة، بل الغالب إنها تستبعد أو تخفي كأشياء غير سارة. ونحن نتجنب غير السار بالنسيان. ولعلنا غير واثقين عما إذا كنا

نريده حقا أو لا نريده. ونحن الشاعرة" في ريب من أمرها "واللاشعور" يقرر أو ينبهنا إلى قرارنا. وهذا تصرف معروف تماماً، وقد زاده فرويد أهمية، ولكن هل تجاوز النطاق، وطغى على القواعد المنطقية كما هاجم صديقه، واتهمه بتخطي آداب المجتمع؟.

وهذه الفلتات، ومثلها العنصر الباعث لها من الأشياء المألوفة، فكثيراً ما يعد الفرد مهام يومه في قائمة طويلة، ولكنه يجد في آخر النهار أن المهام المتعبة لم تظفر بنصيبها من العناية. ويسلم الدكتور فرويد بأن زيارة المرضى التي ينتظر أن تكون قليلة المسرة أو الأجر يحتمل أن "تنسي" في أثناء الطواف في الزيارات المهنية. ويمكننا أن نسلم إن هذا التصرف الشائع يجوز أن يستمر بطريقة أدق، وأن يقمع بقوة أكبر، فهو معرض لأن يقرر ويصاغ على نحو أكثر دقة أو شكلية. أما القول بأنه يمتد إلى مالا نهاية، ويتغلغل من مجال بعيد إلى ما هو أبعد منه، وتكون له أهمية خاصة في تشخيص الأمراض، وأن يحتل مركزاً منطقياً مضموناً، فشيء آخر أكثر من أن يشك فيه فحسب، ومع ذلك فإن هذه الأهمية أضفيت عليه في التحليل النفسي.

مجموعة من الفلتات: ولعله من الأفضل أن نلخص في هذا المجال بعض الأحداث المختلفة. فهذا كيميائي شاب بقي في معمله بدل أن يحضر حفلة عرسه حيث كانت عروسة تنتظره، فهو لحكمة ما تلقى "وحياً" من لا شعوره بأنه ليس جاداً في أمر زواجه، فآثر أن يظل أعزب.

وحدث آخر مشابه، ولكن لعروس، نسيت موعد مع صانعة ثوب الزفاف؛ فهذا الحدث من الجائز أن يفسر على أنه تعبير لا شعوري عن ترددها في اتخاذ هذه الخطوة التي أثبتت الأيام أنها كانت خطوة غير مرغوب فيها لأن الزوجين انفصلا بعد أعوام قليلة.

ورغم هذا فإنه يتعذر علينا القول بأن مدينة "رينو"[٤٣] Reno، تفقد عملها لو أن من ينوون الزواج أصغوا إلى الصوت الصغير الذي عبر عنه اللاشعور بتلك التصرفات التي بنبيء عما يجري فيه.

ونسيان الكلمات، ولاسيما أسماء الأعلام من المسائل الشائعة ومن التجارب المثيرة للجنة التي قد تقود ضحيتها إلى الاستعانة بعلم النفس أو إلى مؤثرات أقوى. ونحن جميعاً نتساوى في الحيرة أمام مشكلة استعادة الكلمات المفقودة... وفي هذا السبيل يلتزم فرويد جانب الصمت، وفيما يلي طريقته في تفسير عمليات نسيانه هو.

حدث: تعذر عليه مرة أن يذكر مكان مصحة إيطالية رغم أنه وكان يعرفه تمام المعرفة.

الحل: وتأمل في موقفه يسأل نفسه لماذا؟ لابد من وجود شيء غير سار عن هذه المصحة. وأخيراً وافاه الحل، فإن الاسم "نرفي، Nervi (أي العصي). وهو يقاسي الكثير من العمل في الأعصاب ولهذا فر

---

(٤٣) رينو مدينة أمريكية اشتهرت بسهولة إجراءاتها في منح الطلاق حتى أصبح من أهم أعمالها (المترجم).

الاسم من ذاكرته فترة من الزمان. وعلى أية حال ينطوي الاسم على الكثير.

نسيان آخر: كان يتناقش مع صديق له يصر على أن بلداً من بلاد الاستجمام واللهو يحتوي على ثلاثة فنادق، بينما تمسك فرويد بأنها فندقان فقط، والواقع أن الصدين كان على حق. وكان اسم الفندق الثالث. هو هخفارثنر Hochwartner، وإلى جواره أمضى فرويد سبع أجازات صيفية. فلماذا نسي مثل هذا الاسم المألوف له.

الحل: وجد أن هذا الاسم شبيه باسم أحد الأخصائيين المنافسين له في مدينة فينا، وقد نسيه، أو تعمد كبته، لأن الاسم كان يمس عقدة المهنة في نفسه.

ويختلف يونج عن فرويد في كثير من المواقف، ولكنه يستعين بالأعراض في تكوين أرائه. ولم لا؟ إذا كنا جميعاً ترتكبها على مسئوليتنا الخاصة سواء أكنا من الفرويديين أو من غيرهم. ويروي يونج أن مستر "أ" أحب فتاة سقيمة الذوق حتى أنها تزوجت مستر "ب" المعروف جيداً من مستر "أ" بحكم صلاتهما العملية. ومع ذلك ظل مستر "أ" ينسي اسم مستر "ب" المرة بعد المرة، ويضطر إلى سؤال الكاتب عن اسمه كلما أراد أن يكتب إليه.

وسبب القمع واضح وفقاً لهذه النظرية، ومع ذلك فإنه بالنسبة لآخرين هو الاسم الوحيد الذي لا يستطيعون نسيانه. والمسألة كما ترى

تعمل على الوجهين. وفيما يلى حالة تبرز فيها كلمة "يونج" على أنها الاسم المنسي.

نسيان الشباب: يروى فرنسزى Ferenczi قصة إحدى مرضاه التي لم تستطع تذكر اسم "يونج". وجرب معها طريقة التداعي الحر Association Method بأن طلب إليها أن تفكر في الاسم المفقود، وتقول كل ما يخطر على بالها.

فواتاها الفكر بمستر "ك" ثم زوجته. وكانت المريضة امرأة متكلفة، أبت أن تكشف عن حقيقة عمرها. ثم فكرت في "وايلد" Wilde "ونيتشة" Nietzsche "وهاوبتمان" Hauptmann(٤٤). وهذا بدوره قادها إلى القول "إني لا احتمل" "وايلد ونيتشة" فلست أفهمها، وسمعت أنهما كانا مصابين بالشذوذ الجنسي، وكان "وايلد" يمضي وقته مع الشبان. [كلمة شاب بالألمانية تنطق "يونج"](٤٥).

أما كلمة "هاوبتان" (تعني ضابط برتبة يوزباشي) فإنها ربطتها بكلمتي هاف Half [معناها نصف] وكلمة يوث Youth ولم تستطع تذكر كلمة "يونج" إلا عندما لفت المحلل نظرها إلى كلمة "يوث".

الحل: ترملت هذه السيدة وهي في التاسعة والثلاثين عن عمرها. وفي هذه السن بدأ لها أن الأمل ضعيف في الزواج مرة ثانية، ولهذا فإنها

---

(٤٤) كتاب وفلاسفة اشتهرت سيرهم.

(٤٥) العبارات التي بين أقواس مربعة ليست في نص المؤلف وأضيفت لتوضيح.

لم ترغب في التفكير في الشباب، ومعناه بالألمانية يونج Jung. والتشابه في طريقة تفسير الأحلام والفلتات واضح.

وفيما يلى اختلاف في مزاولة على أعراض النسيان:

سئل طالب في امتحان الدكتوراه عما يعرفه عن "ابيقور"[٤٦] Epicurus، وعمن يحتل مركزة مشابها له بين الفلاسفة المعاصرين، فأجاب "جاسندي" Gassendi، ثم تطوع وأضاف كذبة لطيفة. وهي أنه كان تلميذه لمدة طويلة، بينما الواقع أنه سمع عنه عرضاً من زميل له قال عنه أنه من أتباع "أبيقور". ونجح الطالب في الامتحان وحصل على مرتبة الشرف، ولكن تذكر اسم "جاسندى" كان من المسائل المتعذرة عليه بعدئذ.

وهكذا عاقبه لا شعوره لمراوغته في الامتحان، ولو كان جميع الطلبة يتأثرون على شاكلته، فأي ذاكرة خربة تكون لهم !!

وتفسير الفلتات السلبية (النسيان) يعطى مجالاً أوسع من الإيجابية (الأخطاء أو التدخلات). وفيها يتسع نطاق الاحتمالات للتخمينات الوهمية والأسباب المزعومة.

والمثل التالي من الأمثلة البعيدة، وقد خصص له فرويد ست صفحات، ولن يقلل من أهميته تلخيصه في السطور التالية.

---

(٤٦) فليسوف يوناني.

حدث: بينما كان فرويد مسافرًا في إيطاليا تعرف بشاب مطلع على أرائه وأعماله. وبينما كانا يتحدثان تطرق الشاب إلى الكلام عن التحزب ضد الساميين مما أو صد أبواب العمل في وجه الشبان الطموحين مثله. وفي هذه المناسبة ذكر بيتاً من شعر "فرجيل" Virgil، وفيه دعا "ديدو" Dido الأجيال المقبلة أن تثأر من "إيناس" Aeneas.

وبينما كان الشباب يردد بيت الشعر[٤٧] أدرك أن إحدى كلماته ناقصة، فاستنجد بفرويد فذكرها له، وكانت

كلمة Aliquis "اليكوص". وتحدى الشاب فرويد أن يحلل سبب نسيانه لهذه الكلمة، فوافق الآخر، وطلب إليه أن يركز تفكيره عليها، ويردد كل ما تثيره من ألفاظ أخرى.

واتجه التداعي إلى تقسيمها خطأ إلى "أ" "وليكوص"، ثم ردد الشاب عدة ألفاظ قريبة في مبناها[٤٨] من الكلمة التي كانت ضالة، وهذه بدورها أثارت ذكرى سيمون الترنتى Simon Of Trent التي شاهدها في مدينة "رنت" ثم ذكر مقالة نشرتها صحيفة إيطالية عن "ما قاله" القديس أو جستين" St. Augustine عن النساء، ثم مقابلة حديثة مع رجل طيب متقدم في السن اسمه– "بني ديكت"، ثم القديسين سيمون وأوجستين وبنيد يكت. وبعد بعض التشجيع ذكر

---

(٤٧) ذكر المؤلف نصوص البيت.

(٤٨) ذكرها المؤلف ولم نر داعياً لترديدها.

الشاب اسم القديس "يا نواريوس" St. Januarius[٤٩] ومعجزة تحول الدم المتجمدة في نابولي إلى دم سائل.

وتردد الشاب لحظة ثم ذكر سيدة قابلها في نابولي وهو مسئول عن احتمال حملها لجنين.

الحل: وصاح فرويد في نشوة الانتصار "وجدتها"، فقد عثر على الدليل على تجنب الكلمة الضالة. وقال "إنك نسقت معجزة القديس يا نورايوس وحبكتها في تورية بارعة لتنصرف إلى الدورات الشهرية للمرأة. ويظهر لي عن يقين تام إن هذا هو سبب نسيانك لكلمة "اليكوص" ولعل القاري في هذا المجال يؤخذ أكثر بمعجزة هذا التفسير.

ويقول فرويد "ولدى أكثر من سبب للاهتمام بأمر هذا التحليل البسيط الذي أدين بفضله لزميلي في السفر"، ومن هذه الأسباب أنه لم يكن مصاباً بمرض عصبي، ولكنه كان شاباً سوياً ذكياً. وقد كشف التحليل أيضاً عن رغبة غريبة متناقضة هي التي سببت عدم التذكر، فهو من ناحية يدعو الخلف إلى تنفيذ العهود، ومن ناحية أخرى كان يخشى إنجاب خلف، وهو في وضع كان يؤرقه في تلك اللحظة.

ولنترك للقارئ مهمة وضع علامات التعجب والاستفهام في تعقيبه على هذا التفسير؛ والاقتباسات الظاهرة تعزز القصة. ومن الجائز أن

---

(٤٩) قديس مشهور في مدينة نابولي بإيطاليا استشهد عام ٣٦٥ ومن دمه حفظت أنبوبتان يتحول ما فيها من دم إلى سائل عدة مرات في السنة. المترجم.

تشير إلى الناحية الأخلاقية التي يحسن معها أن نترك كثيراً من الزلات بغير تحليل، وهي كثيرة ولا حصر لها. وإذا ما صرنا حساسين لها فإنه من المحتمل أن نعود أنفسنا على عادة أو لازمة خبيثة تدعونا إلى ملاحظتها باستمرار. وحالات التعميم موجودة لدينا دائماً طالما أنها لم تتعرض للاختبار، وهي في الغالب لا يمكن أن تختبر.

وأزيد على ذلك أنه عندما ينسى مريض أن يملأ ساعته، فإن فرويد فهم هذا النسيان على أنه تعبير رمزي بأن الأمر سيان عند المريض أن يبقى حياً أو يموت في اليوم التالي. وبما أن هذه الفلتة كثيرة الشيوع بين الناس، فإن النتيجة ستكون وخيمة لو آمنا بها إذ تعد إنذاراً من "اللاشعور" بأن ميولنا انتحارية.

ويجب على الإنسان يكون حذراً في حضور خبراء علم دراسة الأعراض، فيعني بتصرفاته، ومخارج ألفاظه، ويكتم لا شعوره. ويروى فرويد قصة شاب كان يقص على بعض أصدقائه أنه كان يعمل سكرتيراً لأحد الوزراء المفوضين، ولكنه فقد وظيفته عند ما نقل الوزير إلى وظيفة أخرى. وبينما كان الشاب يتحدث كان يتناول قطعة من فطيرة إلى فمه، فسقطت منه بإهماله. وقال فرويد معقباً على هذه الزلة، "وها أنت تفقد لقمتك المنتقاة، فإنها دلت عنده على أن الفكرة سببت الحدث.

وفي وسعنا إذا قبلنا الفكرة بطريقة غير مغالية في الجدية، أن نحى حفلة "لكشف الأسرار" على طريقة فرويد، فإنها يحتمل أن تكون تسلية

اجتماعية طريقة. ويشترط أن نلعبها بروح المرح والتسامح نحو الجميع، وبدون حقد لأي إنسان على أن لا نسرف في الأمور الشخصية.

ويظهر أن فرويد و"يونج"، جربا كل منهما على الآخر هذا اللون من التسلية على ظهر السفينة التي أقلتهما إلى أمريكا في عام ١٩١٩ فامضياً الوقت في هذه التسلية كوسيلة لاختبار النظام كله، فكانت النتائج جيدة مدعمة لروح الصداقة بينهما. ولكنها على أية حال لم تمنع قطع علاقاتهما بعد سنوات قليلة.

ويقدم فرويد عدة أمثلة لتعقب "اللاشعور" إلى مربضه الجنسي بوسائل حصيفة للتحليل النفسي، وبها يؤكد الشعار الدبلوماسي "فتش عن المرأة" وبما أن كثيراً من مرضاه كانوا من النساء، فإنه يتساوى مع شعار "فتش عن الرجل، وفي هذا المجال نجد في ملاحظة هاينه" Heine طرافة أكثر، وتنطوي على تحليل نفسي له نتائجه، فقد قال أن الأديبات جميع سجلن كتاباتهن بعين على مخطوطاتهن بينما الأخرى على الرجل. وليلتزم جانب الصدق كان عليه أن يستثني الكونتس رهان فون هان Hahn Von Hahn إذ كانت بعين واحدة. الحدث: كان فرويد خلال سنوات طويلة يزور سيدة في التسعين من عمرها مرتين في اليوم ليضع لها قطرة في عينيها، وليحقنها بمحلول تحت الجلد. وفي إحدى المرات خلط بين الزجاجتين. وقال فرويد روتولاني جزع مرير، ثم هدأت نفسي لأن نقطة قليلة من محلول المورفين بنسبة اثنين في المئة لا يمكن أن تحدث أضرارا حتى في تجويف باطن العين. وكان من

الواضح أن مبعث الرعب شيء آخر. الحل: وفسر فرويد الحدث بأن فكره في أثناء الزيارة كان مشغولًا في حلم رواه له شاب في الليلة السابقة، وقد فسر ذلك الحلم، على أنه اتجاه أوديبي، وأنه كان يعبر عن رغبة الشاب في امتلاك أمه. وقال "كنت غارقة في تفكير من هذا النوع حين أقبلت على مريضتي التي تتجاوز التسعين من عمرها. ولا ريب أني كنت في طريق لفهم تلك الشخصية العامة الأسطورة أوديب وفقا لأحكام القدر التي أعلنها الوحي لأني ارتكبت خطأ في حق السيدة العجوز.

ومن الواضح في هذا المثل، أن العلاقة بين الحدث وتفسيره لا تزال غامضة كما كانت. ويظهر أنها رهن بفهم كلمة ألمانية غامضة يحتمل أن تدل على عدوان أو سوء تناول أو أي خطأ عام. وعلى أية حال فهذا هو التفسير الذي أورده فرويد. وفي أثناء سرده لهذه القصة، لاحظ أن أسطورة أوديب ولا تشن أي هجوم في مثل عمر الملكة جوكاستا، وقد هنأ لا شعوره على اتجاهه، وقال " فمن الخطأين المحتملين، وهما تناول محلول المورفين للعين، أو القطرة للحقن، فاني اخترت أقلهما أحداثا للأضرار".

وعلى هذا الأساس فلو تألفت هيئة محكمين محنكة في علم الأعراض الفرويدي، وبحثت عن البواعث في حالات أخطأ أكثر خطرًا، فإنها ستثير مجموعة طريفة من التأملات والتخمينات.

وبغية إكمال النقص، ولأن فرويد ينسى (سواء بقصد أو بغير قصد) إن أكثر هذه الفلتات لها تفسيرات أخرى متفاوتة البساطة، فإني سأسرد أمثلة أخرى تظهر فيها التفسيرات واضحة، ولكن فرويد في إخلاصه لتفسيراته للأحلام والفلتات يوثر البعيد على ما هو في متناول اليد. وهو في بحثه عن الكامن يتجاهل الظاهر والواضح.

كان فرويد، وذلك في فترة متأخرة عندما استقرت مكانته، يعرب عن غضبه إذا لم يغلق المرضى الباب الفاصل بين غرفة الانتظار وغرفة العيادة. ويقول "كنت أصر في شيء من الغلظة على أن يعود المريض أو المريضة لتصحيح الخطأ سواء أكان المريض رجلًا مهذبًا، أم سيدة في أبهى الخلل، فثل أولئك الأشخاص ينتمون إلى الغوغاء وهم جديرون باستقبال فاتر بعيد عن روح الصداقة.

التفسير:

تدل هذه العملية على عدم الاحترام، وتوحي بفكرة سخيفة في عقلية المريض، كالقول بما أنه لا يوجد أحد في غرفة الانتظار، فمن الواضح أن قليلين يستشيرون هذا الطبيب، فلا بأس من أن يظل الباب مفتوحًا.

أما كيف فرض أن جهاز اللاشعور وصل إلى هذه النتيجة فمسألة غامضة. وهذه المعاملة الاجتماعية، ومدى مساعدتها لعلاج التحليل النفسي هي أيضا موضوع آخر يثير التساؤل. وبما لاريب فيه أن الخطأ

في الكلام، وزلان سان والقلم، وفي أمور يمكن أن تقال بطريقة أفضل، وكذا في أخطاء الكتابة والطباعة كل هذه الفلتات والهفوات تنطوي على باعث ما، وهو يقتحم طريقه، ويفد من اللاشعور. وإنا لنجد في هذه الناحية وفرة من الأمثلة التي لا حصر لها، وأكثرها واضح لا نزاع فيه. وهذا ما يعبر عنه بالفرنسية Arriere Pensée؛ ويراد به الفكرة التي يخفيها المرء في نفسه، ولكنها تفلت منه من غير أن يفطن لها، وإنا كثيرًا ما نقوم بدور مزدوج في تفكيرنا فتضمر ونظهر في وقت واحد.

ومن المحتمل أن المبادئ الفرويدية تحسن استخدام هذا الفصل من علم النفس وتتوسع فيه. وفي هذا التوسع يرى فرويد أن النية عندما تكون قريبة إلى حد ما من سطح الشعور فإنها تصير وخزة أو لدغة مما يتصل بموضوع روح الفكاهة. وهو من موضوعات علم النفس. وقد كتب فيه فرويد بطريقة طريفة، ولكن هذا يعد تطبيقًا أكثر مما هو جزء من الأدلة المؤيدة للتحليل النفسي.

وتوجيه الأنظار إلى علم نفس الأحداث الطارئة في الحياة اليومية، كأنواع التوقف التافهة، والتدخلات، والزلات الخفيفة وأخطاء العمليات العقلية في دورها المزدوج من جهر وإخفاء مما لا مفر من أن ترتكبه جميعًا في أثناء صيانة الصلات الاجتماعية القريبة والبعيدة، ثم توضيح أن الجهاز الذي أمكن تمييزه في هذه العمليات الخفيفة إنما يتشابه في طبيعته مع ذلك الجهاز الذي يظهر في الأحلام، وفي أنواع العجز العصابي الخطيرة، وهي من عالم و حالات مختلفة كل الاختلاف... وهذان الجزء أن من المشروع وضعا بحكمة ودقة، ويبينان مدى خصوبة عقلية فرويد.

والواقع أن فرويد يمتاز بنظر ثاقب مبتكر، وقوة تحليلية قادرة على تمييز الأشياء الهامة الثمينة مما يهمله الآخرون. أما عملية تنفيذ هذه الآراء البارعة الممتازة على ذلك النطاق المتطرف، وبهذه الجرأة، وعدم المبالاة بالمنطق، وبتجاهل قيم الروابط في الموقف، فهذا هو قلب الأوضاع وعكس الصورة. وتظهر هاتان السمتان فيما سبق. وهذه الفصول المبتكرة الأصلية في عالم النفس من صنع فرويد وحده.

الباب الثالث

البناء الأعلى

ما وراء علم النفس

METAPSYCHOLOGY[٥٠]

ذكرنا أن التحليل النفسي يتألف من نتائج دراسات عياديه (إكلينيكية) أدت إلى نشوء نوع من علم النفس. وقد بدأت هذه الدراسات بحالات العصبية النفسية، فتتبعت أعراضها، ودرست تاريخ حالاتها، وتعقبها إلى منابعها في الدوافع والعقد النفسية. وأدت هذه الطريق نفسها إلى تناول ما في الأحلام من تعقيدات خفية رمزية فسرت عياديًا على أساس نزق اللاشعور؛ وقادت هذه الدراسات أيضا إلى طرق جانبية هي التصرفات العارضة التي كشفت عن فلتات أخرى للحياة المزدوجة، وفضحت نوعًا من النفاق المحترم. واجتازت الدراسات العيادية طريق السمات الشخصية، وانطلقت في كل سبيل، وهدفها جمع مواد بناء لتشييد حصن التحليل النفسي. وبعقلية هندسية نتحول الآن إلى علم النفس الذي أنشأه فرويد ليتضمن التحليل النفسي، وننظر إليه من وجهة هندسية معمارية.

---

[٥٠] اصطلاح استخدمه فرويد لامتداد البحوث إلى ما وراء مجال علم النفس ويتناول الظواهر النفسية من نواحي القوة المحركة Dynamic والطبوغرافية Topographicaeوالاقتصادية Economic. المترجم

وقد ظل فرويد شخصية ابتكارية مبدعة خلاقة، يرفض البتة أن يبني وبقا لتصميمات غيره، راضيًا بأن يشيد صرحه، قسما بعد آخر وفقا لما يظهر من مشروعات. وقد حدث تحول في مركز اهتمامه المتعدد الجوانب في نشأته واصله؛ فباكتمال النضج وخبرة السنين يتحول كثيرون ممن وهبوا أنفسهم للحياة العقلية إلى بناء فلسفة، فيعتمدون قليلا على المعمل، وكثيرة على الكون. وكان أمام فرويد انحرافات أتباعه، ولا سيما ادلر ويونج من أوجدوا للمبادئ الفرويدية قيودًا وحدودًا، وأدركوا الفجوات في البناء، فحولوا إليها اهتمامهم. فقد ظهر لهم أن الإنسان Homo كما عرفه فرويد، غيرواف بالغرض المطلوب. ويضاف إلى ذلك عدة عوامل عنيفة مدمرة متحدية، وهي المسئولة عن انتشار " المودة، الفرويدية، ونعني بذلك الحرب العالمية الأولى التي خيبت الآمال: وعطلت الأعمال، ودفعت الناس إلى التفكير.

وعلى أية حال فإن فرويد بعد الحرب صار عالمًا نفسيًا، وفيلسوفًا أكثر منه طبيبًا في عيادة.

ولعل أوفى سجل لنظام فرويد من حيث هو نظام، هو كتاب "بنية ومعنى التحليل النفسي" "لهيلي وبرونر وباورز" فهو لا يقتصر على أن يقدم لنا صورة البناء الفرويدي، بل يقدم أيضًا صورة لساكنه الإنسان الفرويدي. وهو يظهر كتعميم للخبرة المكتسبة من العيادة الطبية، فبعد أن اكتشف فرويد وسائل النفس وطرقها في العيادة، فإنه واصل العمل ليعيد بناء علم النفس على هيئة التحليل النفسي.

والإنسان الفرويدي يتألف من "هو" Id"، و(أنا)، Ego وأنا أعلى، Super Ego وقد ظهر "الهو"، أولًا، وهو الشعور العظيم المتأصل البعيد الغور، والعضوي الوجداني.

وهذا الإنسان، الفرويدي أبعد أثرًا في الحياة من " الإنسان، العادي الذي يعني بأموره المفكرون العقليون، "فالهو"، هو اللاشعور منقحًا.

ومشكلة الحياة النفسية، هي أن توفق بين مبدأي اللذة والواقع، وتدمج أحدهما في الآخر، فيعيش الإنسان بغرائزه، ومع ذلك يحيا حياة معقولة. وفي كتابة ما وراء مبدأ اللذة، In Beyond

The Pleasure Principle وهو نقطة التحول في نظامه الجديد، صحح فرويد تعاليمه الأولى القائلة بأن اللذة وحدها أولية ومنظمة، واعترف بالغرائز التي تعمل متوازية، وأفسح مجالًا أكبر للأغراض والأهداف بدلًا من الاعتماد كلية على الحوافز وحدها.

وبهذا التعديل اعترف علم نفس التحليلي بأن في النفس البشرية "أنا"، «وهو». وقد شرحت هذه التعاليم الجديدة في كتاب The Ego and the Id وهو رسالة أخرى في العهد الجديد من الكتب الفرويدية المقدسة.

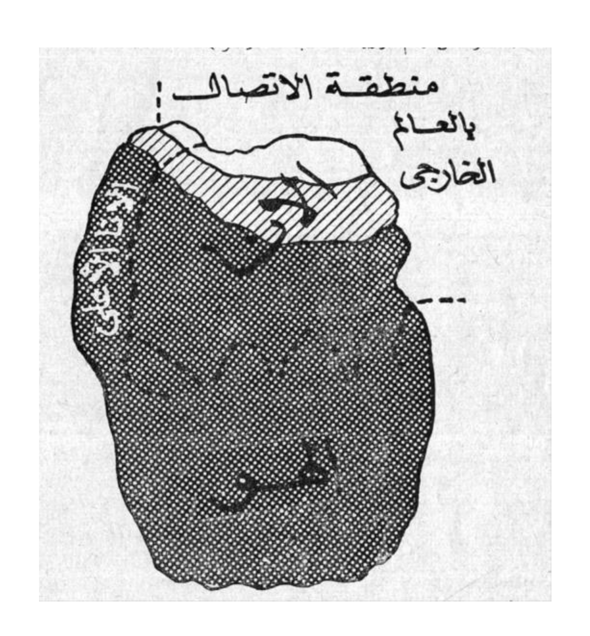
الهو

وفي هذا التمييز بين "الأنا"، "والهو"، تسليم أكبر بالمسائل الحيوية. وهو ذو فوائد مختلفة. وسأعود إلى الحديث عنه عند النقد. وقد أثاره (جروس) Gross عندما تحدث عن وظائف أولية وأخرى ثانوية في مملكة النفس؛ فالحياة النفسية كلها أولية أو ثانوية أو خليط من الاثنين، والعضو الثالث من الثالوث الذي يلون أهدافنا، ويشكلها في هيئة فجة وفقًا لا رادة (الهو)، و"ألانا"، هو "الأنا الأعلى"، أو الأنا المثالي. وقد أنشأه "الأنا" بطريقة معقدة في موطن بيئته ليحدد هدف الجهود البشرية في تحولاتها، وليقرر مسار المدينة.

رسم يبين العلاوات الطبوغرافية بين الشعور واللاشعور.

وبين الهو والانا والابن الأعلى.

(مأخوذ عن رسم لفرويد في كتابة الأنا والهو).



الأجزاء المظلة تبين اللاشعور.

الأجزاء الخفيفة الظل تبن قبل الشعور.

الأجزاء غير المظللة تبين الشعور.

أعيد طبعها بأذن من هيلي وبرونر وبوارز من كتابهم. " بنية ومعنى التحليل النفسي».

و«الهو»، أولى الوظائف كله، أما "الأنا الأعلى"، فثانويها، ويشترك "الأنا"، في الخاصتين، وأن يكن عمله ثانوي الوظائف في الغالب. ولا نستطيع أن نطلق الدوافع الأولية "للهو"، ونعيش على ما نحن عليه، مجموعة من الأنظمة المعقدة، للانا، الذي يعيش في ظل أنظمة "ألانا" الأعلى، ومثله العليا. والنظم الفرويدية المغرقة في التجريد توضح لنا

كيف تحول الهو، إلى "أنا"، ثم استحدث "الأنا الأعلى"، وكيف يتحكم الثلاثة في العالم النفسي سواء في الشخصيات العادية السليمة، أو في المصابين بأمراض عصابية. وهي تتحكم أيضا في القوى الاجتماعية. ومؤسساتها التي تشكل أحوال البشر. فهذا النظام الضخم يؤلف البشرية في نظر الفرويديين، ولعله نظام قاس شكلي منفرد بإسرافه في الشكلية، ولكنه إنساني في نياته ومقاصده.

وقد رسم فرويد شكلاً إيضاحيًا يبين كيفية تكوين مجد الإنسان وعظمته من لا شيء، فكان شكلًا كئيبًا، ولكنه تقدم به كوسيلة تساعد ذوي المخيلات التي تميل إلى الأشياء المجسمة. وإني لاستغل فرصة تأمل القارئ لهذا الشكل، لأحذره وأواسيه، فإن هذا الجزء من قصتنا المعقدة المتشابكة، إنما يضع أمامنا مجرد فكرة تأملية نظرية محضة، والمقصود بها أن تكون في هذا الوضع صراحة وعمدًا.

أما أولئك الذين لا يهتمون مثل هذا التمرين العقلي، فلهم أن يخلوا الطريق، ثم يعودوا وينتظموا فيه فيما بعد، فلا يوجد مكتب علمي معترف به يصدر تصريحات ورخصًا بالتخمين والتأمل للسائقين الأكفاء من ينطلقون في دروب التفكير العقلي وأزقته؛ ولنذكر قول جيمس James في كتابه " إرادة الإيمان، The Will to Believe، إننا نؤمن، كما نسافر على مسئوليتنا الخاصة.

وعلى أية حال فان فرويد عندما أطلق على نظامه اسم دما وراء علم النفس، فإنه قدم شيئا يمكن اعتباره اختبارًا أو تصريح مرور يمكنه

من الانسحاب، فانه بهذه التسمية، وهذه الصراحة، جرد النقاد من بعض سلاحهم. ومع ذلك فان مدى الاستعانة بهذا التأمل الشرعي في فهم النفس وتقديرها يتوقف على طريقة استخدام هذه التأملات.

ومع أن أحدًا لم ير الهو، مطلقًا من عقاله أو مقيدًا في قفص، فللقارئ إذا ما تلائم مع هذا النوع من التأملات أن ينظر إلى الهو، كاسم في وضعه فيلسوف في علم النفس ليدل على مقوم مألوف من مقومات السلوك البشري، ولا يجوز أن يعتبره كوحش بشع خرافي. وإن كان الإنسان نفسه يشبه هذا الوحش في بعض الأوقات.

وباختصار يوصف الهو، بأنه " منبع الطاقة الغريزية في الفرد وهو لاشعوري، والمستودع الأكبر للبيد، وهو منطقة العواطف والغرائز والعادات، وفيها يتمتع مبدأ اللذة بسلطة مطلقة، وهو لا أخلاقي، ولا منطق، ولا يتمتع بوحدة الغرض. وفيه تنغمر العواطف المكبوتة وتصير جزءًا منه.

والهو، في وضعه الإنساني هو اللب الحيوي في كياننا البشري، بما فيه ناحيتنا الحيوانية، وهو يعبر عن الأساسيات والبدائيات الأولية، وعن النواة الأولى للحياة النفسية... ففي الهو، تبدأ الحياة، فالطفل كله " هو، ولكنه يحتوي على بذور الإناء الذي يظهر بالتدريج. وحياة «الهو» قريبة من الإنسان البدائي، وفي انعكاساته نرى أنفسنا كآدم وحواء. وبمعونة شجرة المعرفة والحية وغيرهما، فإننا ندرك اللبيد على أنه القوة الحيوية الأساسية التي تحرك النفس من مرحلة الجنين إلى مرحلة النضج الكامل.

وتقول الذات الفرويدية أنك كائن جنسي، وإلى الجنس تعود. وحقيقة أن اللبيد أكثر من الجنس بكثير، فهو الناحية الجنسية والنفسية، وقد وسعت حتى صارت النفس الفرويدية. ومع ذلك فالهو مشبع باللبيد على اختلاف أشكاله وفي شتى مراحله.

وعندما نعيد قراءة فرويد، ونضع افتراضاته في ما وراء علم النفس نصب أعيننا، فانه يظهر بجلاء أن نظام الدوافع عنده من إنتاج "ألانا "، وأن أنواع اللبيد تندمج كلها في أنواع وألانا، ولمجموع صلاتها الاجتماعية أهميته، فالأب يظهر كمصدر للسلطة، كما يبدو أنه الأصل في إنجاب الأطفال، والأم تبدو كحامية للأطفال، ومنجية لهم. وحالة أوديب تظهر في شكل جهاد في سبيل التقدم والاستقلال، وقيدًا طفوليًا مقدورًا على الناس.

ويمثل مسار النمو على أنه تنقلات لبيديه إلى حد كبير، حتى إن الأنا وهو الواثق من نفسه، من حيث هو مثبت بوجوده في وسط حافل صاخب، ويستعيد نفسه أبدًا بل يظهر كما هو. وهنا يبرز انسحاب يونج ليؤكد السيادة المتكافئة لشتي دوافع الأنا. ويبرز الموقف الذي نادى به ادلر من حيث توكيد إرادة القوة، والسعي وراء السلطان. وهكذا في التكوين "ناضج يظهر الأنا، عند فرويد في شكل أروع ومنظر أقرب إلى الواقع.

ومرة ثانية نعود إلى نصوص هيلى، لنفيد من ملخصاتها الجوهرية.

الأنا

"الأنا" هو منظمة متماسكة للحياة العقلية. وهو مشتق من التركيب الأكثر بداءة، والمعروف باسم الهو، تبعًا لتعديلات فرضت عليه من العالم الخارجي وخواصه هي:

ليس منفصلًا عن الهو "انفصالًا حادًا، حيث ينغمر جزؤه الأسفل. وجزء من الأنا، شعوري، والباقي لاشعوري، ومنه تصدر أنواع الكبت ألمقيدة لقوى "الهو"، الكبيرة وتصدها. ومن الجائز أن يتوسط الأنا، لإحداث حالة الإعلاء، وبهذه الطريقة يتحول اللبيد الشهوى إلى ولبيد أنوى. وكما أن الغرائز تلعب دورًا كبيرًا في الهو، فإن الإدراك الحسي يلعب دورًا مماثلًا في "الأنا".

و "الأنا"، ينام، ولكنه يمارس رقابته على الأحلام، ويحرص على أن يكون أخلاقيًا. وهو يخدم ثلاثة من السادة، فيتعرض لأخطار ثلاثة، وهي العالم الخارجي، ولبيد والهو وقسوة "الأنا الأعلى.

"والهو"، ينتج القوى المحركة المسيرة، فيمسك "الأنا" بعجلة القيادة بغية الوصول إلى الهدف المطلوب، وللأنا واجبان مختلفان فيما يتعلق بالرقابة على الهو:

(أ) يراقب العالم الخارجي لاقتناص أنسب الفرص لتحقيق دوافع الهو بغير إحداث ضرر.

(ب) يغرى الهو ليعدل أو يتخلى عن طلباته أو يستبدل بها غيرها، أو يؤجل إرضاء هذه الدوافع. ولا توجد معارضة أو عداء فطرى بين الأنا، والهو... وفي الأشخاص السويين يجب أن يتعذر تمييز أحدهما عن الآخر.

وكي يكون للأنا تأثير حقيق في الهو، يجب أن تتيسر له سبل الاتصال بكل أجزائه، وإذا ما تناول الأنا، أي دافع للهو بالكبت، فلا مفر من أن يدفع الثمن بفقد سيطرته على ذلك الدافع الذي سيسمى إلى التستر بكافة وسائل التخفي ليثبت استقلاله. والأمراض العصابية تنشأ في الغالب من هذا الصراع بين الأنا واللهو. وأيا كانت الحالة فإن بعض العجز لا بد أن يصيب الأنا.

وتبدو هذه العبارة شاملة، ولكن حالة الحرب لا تتوقف بين الأنا والهو، فبدونها تصير الحياة، وكل ما كتب فرويد من آراء ومذاهب أمرآ نمطيًا ملا. وهي إلى حد ما كفلسفة ما وراء الطبيعة لهيجل Hegel، إذ توجه العناية أولًا إلى أحكام النزاع بين المتناقضات، ثم ينتهي الأمر إلى التوفيق بينها بشكل جدل؛ أم إن الأمر أشبه ما يكون بفرقة تكلف بصعود تل ثم الهبوط منه.

ولا يجوز لنا أن نفرض أن مصير الأنا، في نظم علم النفس، أو في الحياة مسألة لا يؤبه لها من الناحية العملية، فإن ما نرمي إليه لا يعدو أن نقدم مواصفات الأنا كما وردت في البناء الأعلى للصرح الفرويدي. ومن الجائز كما ذكرنا من قبل أن نصل إلى النتائج ذاتها بطريقة أبسط وبعبارة

أكثر مسايرة لعلم الحياة، وذلك بدراسة تطور مقومات الخلق وتكاملها عن طريق الوظائف الأولية والثانوية.

الأنا الأعلى

بدون مقدمة يقول. الأنا الأعلى في القصة الفرويدية المنقحة:

"الأنا الأعلى" هو نمو وتعديل من "الأنا"، وله مركز خاص بالنسبة للأنا. وله أيضًا سلطة حكم الأنا وهو لاشعوري، إلى حد كبير، ومستقل عن (الأنا الشعوري الذي لا يتيسر له في الغالب الوصول إليه،

والانا الأعلى، على صلة قوية دائمة بالهو، ويمكنه أن يعمل كممثل له لدى الأنا ... الأنا الأعلى، من الرواسب التي خلفها الهو، وراءه من جراء أقدم تحولات نشاطه الجنسي عن غاياته الأصلية، وهو وريث عقدة أوديب، أي رواسب تقمص شخصيتي الأبوين وقد اندمجتا في بعضها البعض بطريقة ما... وأنا، الطفل تقترض القوة من الأب لتعاون في كبت عقدة أو ديب، فهو عقبة في داخل الذات أصد رغبات أوديب، ويا له من قرض خطير الشأن. وعمل الأنا الأعلى، الرئيسي هو النقد الذي يخلق في الأنا، إحساسًا غير شعوري بالذنب. وهو أساسًا كالضمير، ومن الجائز أن يكون متطرفًا في الإستمساك بالأخلاق. وهو متعسف بالنسبة للأنا، وقابل للانسجام مع المؤثرات التي تؤثر فيه فيها بعد، ولكنه يحتفظ طول حياته بالخلق الذي اكتسبه من جراء اشتقاقه من عقدة الآباء. وألانا، الناضج يظل خاضعًا لسلطة "الأنا الأعلى"، وبه تبقى

الأوامر والنواهي الصادرة إليه من أصحاب السلطة الآخرين كالمدرسين وغيرهم، وتظل عاملة به على هيئة ضمير لتمارس الرقابة الأخلاقية.

وقد أثرت مبادئ فرويد بشأن وما وراء علم النفس، على أتباعه تأثيرًا ملحوظًا، فإن المعركة التي استعرت، وكان عمادها الفروض والقضايا المتطرفة، كانت ذات سحر جذاب، ولولا أن الأمر محير كل الحيرة لحاولنا جمع تلك التفاصيل المتناقضة في صورة واضحة المعالم. ولا يوجد في التحليل النفسي قسم واحد ظفر بفيض من الكلام الفصيح، والمهارة الجدلية (الديالكتيك) مثل ما ظفر به هذا القسم. أما تقديره وفائدته، فتبعة منطقية سنتناولها في الوقت المناسب. وعلى أية حال، فبادى ما وراء علم النفس تكمل البيت الذي بناه فرويد.

الباب الرابع

خلافات يونج وعلم النفس التحليلي

ظل فرويد يدافع عن موقفه، ويتشبث به، ولكنه لم يعتبر نظامه أمرًا نهائياً، بل أدخل عليه كثير من التعديلات والإضافات في فترة نموه، وضمنه كثيرة من بحوث الآخرين، إذا انسجمت مع معتقداته الأصلية، أو نشأت على أساسها. وأما المجددون والمصلحون، والمخالفون له، فلقوا جزاءهم العاجل أيا كان اعترافهم بفضله وزعامته، وأيا كان تقديرهم لريادته لتلك الناحية التي كانت مهملة.

ومروق الاتباع من دائرة التحليل النفسي يتجلى في حالة القلق المنكودة الحظ التي سارت فيها الحركة الفرويدية، فمن ذات طرازها الهندسي بنيت دور أخرى التنافس البيت الذي أقامه فرويد؛ ولكن باختلافات ملحوظة في التصميمات والمواصفات. ومن أشهر أولئك المخالفين "كارل يونج Carl Jung؛ وهو من مدينة زيوريخ. ولقد بذل المحللون النفسيون جهودًا كبيرة لمعالجة أنواع الصراع عند الآخرين، ولكنهم عجزوا عن تسوية المنازعات الداخلية بينهم... ومن ثم نشأت فرويديه أرثوذكسية مقبولة، فكانت من أكثر المدارس إتباعًا، وأخصبها إنتاجًا.

وإلى جانبها نشأت أيضا عدة مدارس أخرى واثقة من نفسها، ومن تعاليمها، وكانت جريئة في نشر مبادئها، فكان لها آراؤها الهامة، وتأثيرها القوي. وقد احتلت كل هذه المدارس مركزًا كبيرًا مرموقًا لدى الجمهور، ولعلها تنتظر مصيرا مشتركا في انهيارها.

وكان أول مصدر للخلاف بينها مسالة السيادة البعيدة المدى التي أضفاها فرويد على الجنس في الحياة النفسية، وكان أخطرها تلك الاستنتاجات المستفيضة المنبثقة من سلطانه العظيم. وكانت الاحتجاجات على صبغ الحياة النفسية باللون الجنسي كثيرة وحاسمة. وهي لم تصدر عن أناس متزمتين، بل جاءت من علياء مسئولين، ومن أتباع فرويد نفسه.

وفي كتاب يونج التحليل، Analysis احتل الجنس مكانة ممتازة كما هي الحال عند فرويد، فإن الدوافع لحياة حافلة في نظره لم تكن تقتصر على مجرد الرغبة في الحياة الجنسية، ولا يمكن أن تكون مشتقة من لبيدها، فاللبيد عنده يتضمن عدة دوافع أخرى توازي الدافع الجنسي، وهي بدائية مثله. فاللبيد هو طاقة الحياة التي تظهر عن طريق النفس. وما كاد هذا التغيير الجوهري الكبير في أحد مبادئ فرويد الأساسية يعلن حتى اعتبر زيغًا وإلحادًا: فالجنس هو مبدأ الفرويديين، والحجر الأساسي عندهم. وكل من يخرج عليه أو يهون من أمره، فهو من شيعة أخرى، ويجب استبعاده.

ومطالبة فرويد بحق ملكية اسم التحليل النفسي، وطريقة ممارسته ليست بالتصرف العلمي المشجع، ولو كان هذا التحليل مقصورًا على وجهة نظر فرويد وطريقته، فانه يتعرض للتحول إلى مجرد تمثال لمؤسسة، وليس مساهمة في أحد العلوم الحية. وفي مثل هذه المناقشات الأكاديمية، والجدال الشخصي، يقف الجمهور موقف الحياد. وسأسرد الاختلافات في المبدأ على أنها جزء من قصة فرويد دون أن أخشى عدوانًا على الحرية؛ فرغم أن اسمي يونج وادلر وأتباعهما كانت منبوذة من فرويد، فهما في الواقع من أنباعه سواء وافقاه أو خالفاه في أرائه.

وقد أثرت أراء يونج على مجرى التحليل النفسي تأثيرًا كبيرًا تجاوز صفوف أتباعه المباشرين. حقيقة أنه ظل عدة سنوات ابتداء من عام ١٩٠٦، وهو من أقرب الناس إلى فرويد في حياته الخاصة أو في عمله المهني، فكان أكبر مساعديه، ولكن الاحتكاكات التي ظهرت في الجمعية الدولية للتحليل النفسي في

الأعوام من ١٩١١ إلى ١٩١٣، وما تبعها من اختلافات في الآراء أدت إلى القطيعة التي عبر عنها فرويد في ألفاظ ديبلوماسية، فقال: " أستأذن كل منا من الآخر دون أن يشعر بالرغبة في المقابلة مرة ثانية». وقد اختير يونج بعدئذ أول رئيس للمؤتمر الدولي بناء على اقتراح فرويد، ولكن المراقبين يقولون: إن هذه الخطوة كانت سيئة الحظ للغاية.

ولو أن فرويد تقبل التعديلات المقترحة من يونج بصدر رحب، لتغيرت قصة التحليل النفسي إلى شيء آخر: فان الرأي المتحرر الذي قدمه يونج عن النفس البشرية يتجه إلى الطريق الذي يجب أن يسير فيه التحليل النفسي إن أراد أن يعيش. وهذا الرأي ليس إلا إحدى مراحل التقدم. وقد يظهر نظام يونج للقارئ العادي كنظام فرويد في تطرفه وبعده، وفي تخميناته، وتحكمه، ولكن خصه في دقة يوضح بجلاء انسجامه مع مبادئ علم النفس المعترف بها. و" علم النفس التحليلي، Analytical Psychology الذي يقول به يونج، يقدم مبادئ التحليل النفسي في صورة أقرب إلى المألوف المعترف به، وأكثر قابلية للتكييف، أما نقطة الخلاف الأساسية فهي اللبيد.

اللبيد:

من الموضوعات المشتركة عند فرويد وادلر ويونج؛ وهم مقتنعون بأن علم نفس الأعماق هو علم المستقبل، فهو على المنابع الحيوية للغراز والدوافع البعيدة الغور. وهو أيضاً على فهم الطبيعة البشرية وعلاج عللها. فالوجدان بالنسبة للجميع أكثر أهمية من التفكير ذاته. وإذا ما تآخت النفس مع اللبيد، فإنها ترتد إلى نسيجها الأصلي.

ومهمة علم النفس لا تقصر على عرض الطرق التي تجرى عليها الناحية العقلية، بل تمتد إلى سبرا غور النفس لتكشف وتستخرج إلى ضوء النهار أسرار الشخصية، وتعاونها على النمو في اتجاهها الصحيح. فاللبيد هو منبع ما نحن فيه، وما يحتمل أن نكونه. فهو مجموع ذاتنا

البشرية. وهو الطاقة النفسية، فهو قوة الحياة مجتمعة شاملة. «واللبيد البدائي»، Primal Libido يخدم نواحي التغذية والنمو، والجنس، ويقدم نصيبًا وافرًا من أنواع النشاط الحيوي ومجالات الاهتمام التي يدمجها "الأنا» في نفسه في أثناء نموه وترقيه.

واللبيد فطري، وله نطاق نموه، وهو الذي يرسم للحياة المتفتحة طريقها ومجراها. وهو مشبع بالجنس، وقوته محشودة لخدمته. وتحتوي دائرة اللبيد على عوامل غير الجنس، وتختلف عنه. ولم يقتصر خطأ فرويد على أنه غالي في صبغ كل نظام الحياة بالألوان الجنسية، وفي تحديد اللبيد، بل امتد خطأه إلى لون من الطاقة النفسية البدائية الممتازة التي يتساوى خطرها وأهميتها مع الجنس، فهبط بها بالباطل إلى مجرد وحدة في اللبيد الجنسي.

وهذه الطاقة هي التي نسميها «الأنا» وهي تسمية حسنة ولا ريب. وينسى فرويد أن الغرائز دائمة الاندماج، وإننا نمو بطريقة تكاملية في اتجاهاتنا. وفي محاولة لإنقاذ الموقف، توسع فرويد في النطاق الجنسي حتى أصبح شاملًا لكل متناقض، فإن اعترافه بنظام الدوافع في «الأنا»، جاء متأخرًا. ويظهر هذا الاعتراف بكثرة، وبطريقة أوضح في الطبقات العليا من صرحه أكثر ما يبدو في بياناته الأولى، على أن هذا الاعتراف لم يؤثر بطريقة ملحوظة في الناحية العملية.

أما يونج فيقيم دعاواه على علم نفس «للأنا»، " فعلم النفس التحليلي، يهدف إلى أعادة خلق الذات. أما ذلك الاصطناع الشاذ

للحالة الجنسية في الطفولة والذي وصف بتعدد الأشكال، فانه، في عرف يونج، تعبير باطل لحالة تنمو نشوئية، ولكن هذا التعبير أضفى على البيضة خواص الكتكوت أو الدجاجة.

والنمو يتضمن سلسلة من المظاهر المتتالية التي تسبق التعبير الجنسي؛ ومنه مرحلة ما قبل الجنس، وهي تمتد إلى السنة الثالثة أو الرابعة من العمر. والبيد المبكر فيها ينفق في التغذية والنمو. وفي المرحلة الثانية أي قبل البلوغ يتسع نطاق الحركة النشوئية للبيد ليوسع دائرة المنافذ للتعبير عن الذات. أما عند البلوغ فإن المركب الجنسي الدافع «للأنا»، على التوسع يؤكد اتجاهاته الإنشائية.

والثبوت Fixation في إحدى مراحل النمو النفسي معترف به عند يونج، كما هي الحال عند فرويد. وكلاهما يراه منبع عدم انسجام في النمو عندما تظل أنواع اللبيد في الطفولة قائمة، وتصر على البقاء كما هي، والتقدم والنمو هما المسار الطبيعي، أما التخلف فمسار شاذ، ومثل هذه الأنواع من التثبيت أو التخلف في مجرى اللبيد تدعو إلى الإصابة بالأمراض العصابية فيما بعد، وتؤدى إلى نقص خلقي، وتتحول إلى عقبات تعترض مجرى النضج. والظواهر في اتجاهات مريض بالعصاب تعكس تغيرات النمو في اللبيد. والطفل العصابي هو والد الرجل المصاب بهذه الأمراض ذاتها.

العقدة الأبوية:

للعلاقات الأبوية مركز متشابه في النظامين التحليلين. وبما أن أول تلبية مطالب الطفل شديدة الارتباط بالأبوين، فإن هذه العلاقات تلعب دوراً بالغ الأهمية والتأثير في نفسه المرنة. واتجاهات الأبوين، وتصرفاتها، ومنها عقدهما، ذات تأثير عميق على الطفل لأنه يقلدهما.

وعقدة أوديب تعد نواة هامة عند فرويد، وهي عند يونج عقدة تملكك شديدة في الطفل لأمة. وهي تعبر عن دافع اللذة في الطفولة، والرغبة في القوة، وتخضع الدوافع الأخرى لإرادتها. وهي أيضاً دافع هدفه الوقاية والحماية، والتفكير فيها على أنها «مضاجعة المحارم»، يشوه معناها، لأن هذا الاتجاه من خواص النضج. والعلاقات الوالدية تتضمن الصلات الجنسية، والابنة التي يبالغ والدها في تدليلها قد تجد صعوبة في الانسجام والتلاؤم مع زوج، لأن صورة والدها يحتمل أن تتدخل في تكييفها فيما بعد، مع أي نوع من الرجال في ظروف أخرى.

والعصاب تعبير عن إخفاق اللبيد في مواجهة واجباته، إذ يتراجع إلى «وسيلة تلاؤم أكثر بدائية»، ولهذا فلست أجد سببًا لأي عصاب في الماضي، ولكني أجده في الحاضر، فاسأل عن الواجب الضروري الذي لا يؤديه المريض، فأوهام الطفولة وتخيلاتها واتجاهاتها يثيرها لبيد مرتد متخلف. والمشكلة العملية هي الحصول على تكيف مناسب للظروف الحالية عن طريق الإغراء باتباع تصرفات من سمات الأشخاص الكاملي النضج.

أنماط وطرز Types **:**

تختلف نماذج الأمزجة التي تؤثر على مجرى اللبيد. وتوضح لفظتا «انطوائي، أو المنقبض Introvert، والمنبسط Extravert التباين الكبير. واللبيد عام يشمل الجميع، ولكنه مرن إلى درجة أنه يتغير، ويختلف في تكوينه وفقًا للمزاج الشخصي. وبما أن هذه الاتجاهات المزاجية تتكرر فيصير من الجائز أن تصنف في نماذج، فذو المزاج الانطوائي المنقبض يواجه مشكلات خاصة من حيث تكيفه وانسجامه مع الواقع: وهي عملية يجدها ذو المزاج المنبسط ملائمة له وتستغرق اهتمامه ونشاطه بكل سهولة. وليست مشكلة الردة مجرد الميل إلى الرجوع إلى المراحل الأولى من النمو النفسي، بل هي تحديد منبع العلة في الموقف الحالي الذي يغرى بالاتجاه نحو الردة أو يعمل على إحداثها. ومن الجائز أن تثبت الردة إنها مسئولية انطوائية.

واهتمام يونج (بالطرز النفسية، Psychological Types يبرز الفروق الأساسية الوراثية في الشخصيات في كل من الأفراد العاديين والمرضى بأعصابهم، وبدون هذه الفروق تضل كل محاولات التحليل العميق عن هدفها. فعامل الطراز أو النمط بارز في المريض والسوى على حد سواء. فالاتجاه إلى الأوهام، ومثله «المخاوف»، Phobias والقلق، ويضاف إليها الشعور بالنقص عند أدلر، كل هذا يحمل علامات الانطوائية.

والانقباض والانبساط يمكن أن يعبر عنهما في أربعة مستويات مختلفة من السلوك. وهي الحسية Sensation والحدسية Tuition ر

والوجدانية، Feeling والتفكيرية Thinking. وإذا ربطنا هذه المستويات بالنماذج السابقة تنشأ عندنا ثمانية نماذج مختلفة للخلق. وهي نادرًا ما توجد نقية، إذ تختلط ببعضها البعض. وعلم النفس التحليلي يتضمن سيكولوجية «النماذج».

تجريب Experimental

يعزو فرويد إلى يونج فضل بناء أول جسر بين التحليل النفسي وعلم النفس التجريبي مشيرًا إلى تجاربه في «التداعي»، Association. وفضلًا عن التداعي الحر، فإن يونج وضع

«اختبارًا للتداعي» Association test. وهو يتألف من مجموعة مختارة من مئة لفظ ذي تأثير. والمبدأ بسيط، فهو يقدم للمريض طائفة مختارة من هذه الألفاظ، ويطلب إليه الإجابة عنها بأول كلمة تستدعيها كل لفظة إلى ذاكرته. وأي تأخير أو فشل في إثارة أي استجابة، بل أن مجرد تكرار اللفظ المؤثر أو الاستجابة الشاذة، أو البعيدة، يحتمل أن تعني وجود مقاومة مما يدل على وجود عقدة نفسية.

وطريقة التداعي الحر تسير الأغوار بنجاح أكبر، وتفتش المخابئ المختلفة للعقد، ووسيلة الاختبار بالتداعي موضوعية، ومحدودة أكثر من الطريقة الحرة، وقد جربت عمليًا على مجموعة من ثلاث ممرضات حامت حولهن شبهة السرقة، فأمكن بها العثور على المذنبة الفعلية. ودرس يونج أيضاً تشابه نماذج التداعي والترابط في أبناء الأسرة الواحدة،

في الزوج، والزوجة، وفي أشكال الاضطراب العقلي المختلفة. وكل هذا مجرد تأكيد طريف لعلم النفس العام. أما الاختبار بطريقة التحليل النفسي فيجب أن يتجه إلى الاستمرار في التغلغل إلى أعماق أبعد وبطريقة مباشرة أكثر.

اللاشعور Unconscious

اتجهت أعظم بحوث يونج واستكشافاته إلى تعقب نواحي اللاشعور إلى منابعها الغامضة في النفس، فأذاع نبأ اكتشاف لا شعور خاص بالسلالات أو «جماعي»، Collective، فضلًا عن اللاشعور الشخصي الذي يشكل الحوادث وحبكتها في التحليل الفرويدي (اكتشاف ضال آخر). وبهذا زادت أهمية الخيال بشتى منتجاته، وخاصة في الرمزية، فهو مسألة سلالية قديمة متعددة المعاني، وليس مجرد وسيط سار في عقلية الطفولة والأحلام. وأحلام اليقظة باتجاهاتها الواضحة وتمنياتها وتحقيقها الرغبات وللتعويضات، تؤلف مرحلة الانتقال إلى أنواع الخيال الإنشائية الرمزية. والرمز عند فرويد هو في جوهرة دليل مقنع لرغبة أو فكرة سائدة في العقدة النفسية، أما عند يونج فهو إنتاج عقلي له أهميته العميقة في التحليل النفسي.

«واللاشعور»، عند يونج شديد الشبه بالخيال الواعي. وهو لا يسكن المناطق السفلى كما هي الحال عند فرويد، والتي لا يتيسر الوصول إليها، بل من الجائز أن يتسع ويعلو إلى ذروة الطرب والنشوة

الروحية، رغم أن جذوره مغمورة كل العمر في الدوافع ومنها الدافع الجنسي.

ما وراء علم النفس Meta psychology

وليونج أيضاً آراؤه فيما وراء علم النفس، ولكنه لم يطلق عليها هذا الاسم. وتميل فكرته إلى هذا الاتجاه بسبب فرضه اللاشعور «الجماعي»، أو غير الشخصي. وهو يفرض وجود نماذج سلالية كبرى Archetypes من الخبرة، ومنها تستمد خيالات الطفولة، وصور الأحلام، والرمزيات، وهي مخلفات حية لطرق تفكير عتيقة. وهذا المنبع العام يعلل وجود «الرموز البشرية العامة التي تظهر في الأساطير».

و«اللاشعور»، الجماعي هو رواسب كل اختبارات الكون في شتى عصوره. وهو أيضاً صورة الكون في مراحل تكوينها من عصور سحيقة. وهي تكمن بالقوة في بناء المخ. وهذا الميراث هو الذي يفسر الظاهرة الغريبة، وهي أن مادة الأساطير وموضوعاتها موجودة في شتى أنحاء العالم في أشكال معينة واحدة. وهذا «اللاشعور» الجماعي يفسر أيضاً كيف أن الأشخاص المضطربي العقل يستطيعون أن يرسموا بدقة كبيرة ذات الصور والارتباطات التي عرفناها من دراسة المخطوطات القديمة. وبقدر مالنا، وعن طريق اللاشعور، فإننا نظفر بنصيب من النفس الجماعية. فإنا بطبيعتنا نسكن بغير شعور منا في عالم من الذئاب والشياطين والسحرة وغيرها، فهذه هي الأشياء التي أثرت في الإنسان أعمق تأثير.

ويتأثر تفسير يونج للأحلام بهذا الغرض المشكوك فيه كل الشك. وهو لا يتردد في أن يربط ظهور ثور في الحلم بالثور الرمزي في عبادة «ميثرا» Mithra وغيرها من المنتجات الثقافية.

وفي هذا المجال يحتفظ الرمز بأهمية قوية كذكر لا كأنثى. ومرة ثانية يجد يونج في النفس قناعة أوسمة إنسانية[٥١] Persona وهي ذلك، الجزء من الشخصية الشعورية الذي نقدمه للعالم كما يجد أيضاً «سمة حيوانية»، وهي جزء من اللاشعور الجماعي. وهي شخصية مغمورة الجزء الإناثي في طبيعة الذكور، وكثيرًا ما تظهر «السمة الحيوانية»، في الأحلام.

ومن يفحصون الفروض الأساسية لعلم النفس التحليلي ليونج، وللتحليل النفسي لفرويد، يرون أن أنواع الخلاف إنما هي مجرد تعارض لفظي لا يمس الجوهر. والاتجاه الشائع بين الفريقين هو مجرد حب الاختلاف. ولكن اتحاد الاتجاهات المتعارضة يزيد جوة الخلاف بينهما كلما سار كل في طريقه؛ ومن ثم انتحل كل من «العلمين»، لنفسه طابعة تخالف طابع الآخر، وطبق «علمه» بطريقة تخالف طريقة الآخر. ويعزى العصاب في عيادات أنصار يونج إلى عدة أنواع من الصراع وعدم التلاؤم مع الحياة. ومحور العلاج ومركزه هو استعادة الانسجام مع البيئة. ومن

---

(٥١) السمة الإنسانية اصطلاح استخدمه يونج ليعني عكس "سمة حيوانية» Anima ويعبر عن عقدة الوظائف Function Complex التي تقرر استجابات الإنسان مشيرة إلى شيء أو موقف معين.

الواضح أنه لا يوجد تقدير واحد أصيل وضروري لا مفر منه في دراسة التحليل النفسي لمشكلات العقل.

ادلر وعلم النفس الفردي

القصور العضوي:

نشأ نظام «علم النفس الفردي»، Individual Psychology للدكتور الفريد أدلر Alfred Adler كما نشأ نظام فرويد في مدينة فينا. قريبان جغرافيًا، وأن تكن المسافة السيكولوجية بينهما بعيدة، فعلم النفس الفردي مستقل، وله صفاته الخاصة. وكانت نقطة بدئه ملاحظة في ممارسة مهنة الطب بصفة عامة. وهي أن المرضى الذين تعرقل العاهات الجسمانية نشاطهم، يتخذون اتجاهات ضارة نحو مشكلاتهم في الحياة، مما دعا إلى كثير من سمات الأمراض العصابية. وقد عرض أدلر هذا الموضوع بتوسع في كتابة (دراسة في قصور الأعضاء وتعويضها النفسي، A Study Of Organ Inferiority and Its Psychical Compensation

(١٩٠٧). وهذا دفعه إلى إصدار "بنية العصابي"، The Neurotic Constitution فكان ثاني كتاب أصدره.

وكانت الدراسة غير عادية، فلاحظة أن العاهات العضوية تغري الاضطرابات النفسية على الظهور ولاسيما في مرضى الأعصاب، قد حولت طبيبًا إلى باحث نفسي، وأقنعته بأن الطب النفسي يجب أن

يسترشد بعلم النفس. وقادت هذه الصلة أدلر إلى احتضان موقف "بروير"، و «فرويد». وهو موقف منبوذ من الدوائر الطبية في فينا، حيث كانا يقابلان عادة بالازدراء والسخرية.

وصار أدلر عضوًا في أول جماعة صغيرة زاملت فرويد، وتتلمذ أعضاؤها عليه في التحليل النفسي. على أن أدلر سار في طريقه المستقل في التفسير والعلاج، فما لبث الفرويديون أن اعتبروه تلميذًا زائغًا، أن صح وكان تلميذًا في أي يوم من الأيام.

ونمت فكرته إلى نظام فيه ادعاء كثير، فاحتل مكانًا هامًا في جملة الحركة التحلية.

أهداف: Goals

يعد نظام أدلر، علم نفس الأهداف، أو سيكولوجيتها، متعارضًا مع علمي نفس الدوافع، عند فرويد ويونج. وكلها تبحث في اللاشعور، أو كما يسمونها علوم النفس العميقة Depth، فالدوافع الغريزية تدفع اللبيد، والهدف يقودها. وكل شيء آخر يعد من العوامل المساعدة. والهدف الشخصي اجتماعي دائمًا، وكفاح في سبيل الظفر بالامتياز وعلو الشأن. وهو لون من الإرادة في سبيل السيادة، ومن رغبة «ألانا» Ego في القوة، وهو المفتاح إلى أنماط السلوك والتصرفات التي يتخذها كل فرد لنفسه طريقة له في الحياة.

ومن هذا يتضح معنى " علم النفس الفردي"، الذي يقول به أدلر. وبه كان للحياة النفسية طريقان، أحدهما سوى، والآخر شاذ. والهدف هو المفتاح دائمًا. والتحليل يسير في اتجاه عكسي، فلا نبحث أولًا عن الدوافع وما تقود إليه، بل نبحث عن الأهداف، وما اتخذ من تدابير لضمان الظفر بها، فنحدد أولًا ما يسعى إليه الفرد، وعندئذ ينكشف سلوكه كوسيلة إلى غاية، سواء أكانت الوسائل حكيمة أم غير حكيمة، وعادية أم عصابية مريضة.

والهدف شعوري في طرازه، ولو أنه غير معترف به تمامًا لأنه مرفوض اجتماعيًا. وعلى هذا الأساس فهو مسألة خاصة غير معترف بها ومتسترة. ولهذا الوضع يستخدم أدلر لفظة «لاشعور»، Unconscious. وهي التعبير الذي استخدمه فرويد لحالة «التهرب بالمرض»، التي تظهر كعامل في كثير من حالات الهستيريا. أما أدلر فيتخذها تعبيره الثابت لكل حالات الأمراض العصابية.

وهذه الأمراض محاولات للهرب من النتائج، أو بتعبير آخر هي تملص من المسئولية بالالتجاء إلى سبل الحماية وألوان التصرف التي تقي الاحترام الشخصي، وتنسجم مع ما نعبر عنه بالإعلاء، وهو الإحساس بالرضى والسيادة. ومن حيث الوظائف فان الهدف الأدلرى بكفاحه السري يقابل الرغبة الفرويدية وكبتها.

الطفل والأب:

والأهداف، من حيث هي طرق للسير في الحياة، تنشأ في الطفولة، مما يتفق مع القصور العضوي الذي يوجد في وقت الولادة عادة، ويتفق بنوع خاص مع تكوين المريض العصي الناشئ من أصل مشابه. وبرغم هذا فان العامل الأكبر في تشكيل أنماط الحياة يعزى إلى تأثيرات البيئة، ولا سيما تلك البيئة الدائمة الوثيقة الصلة، وهي البيئة العائلية، ففيها تتكون الحياة.

وقد أكد فرويد «تشخيص»، أدلر عندما تعقب العلل العصبية وردها إلى صدمات الطفولة " فكل تصرف ملحوظ لأي إنسان يمكن تعقبه إلى أصل في الطفولة. وفي غرف حضانة الأطفال تتكون وتعد كل اتجاهات الرجل في المستقبل».

وكان هذا الانحراف في علم النفس الأدلرى من بواعث ذيوعه وانتشاره، فصار المرشد التكوين السمات الخلقية، وخاصة في الأطفال. ومن ثم أنشأ أدلر وأتباعه عيادات للعناية بالطفل المشكل، وزاد اهتمام جمعياته بدراسة الأطفال ونظام علاجهم؛ وصار موقف العائلة أكثر أهمية مما هو عند فرويد ويونج، وأن كان مبعث الأهمية اتجاه آخر. فوق الطفل في الأسرة، في عرف أدلر، يلون اتجاهاته في الحياة. وهذه العلاقة هي التي ينتظر أن تقرر خلق الطفل أيا كان عمره بالنسبة لأخوته، على أن تأثيرها يبلغ ذروته على الطفل الوحيد. فأهداف الحياة. وألوانها تكرر تلك التي في الأسرة وتضخمها.

تحليل أدلري.

والتحليل على طريقة أدلر، ويعبر عنها بالتحليل الفردي، يتبع وسائل تخالف طريقة فرويد كل المخالفة. وسيظهر مدى اختلاف الإجراءات المترتبة عليها بسرد حالة خففت من طولها بشيء من الاختصار.

«خطب رجل موهوب فتاة ذات أخلاق عالية، وفرض عليها مثله العليا في التربية... واستمرت فترة وهي تعاني الكثير من الأوامر القاسية. وأخيرًا وضعت حدًا لكل آلامها بقطع العلاقات مع خطيبها. وعندئذ أنهار الرجل، وصار فريسة للنوبات العصابية».

«ودل فحص حالته على أن هدف التفوق عنده قد استبعد فكرة الزواج من ذهنه من زمن طويل، وان غرضه كان في الواقع العمل سرًا على فسخ الخطبة لأنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه ليس أهلًا للكفاح السافر الذي خيل إليه أنه من لوازم الزواج.

أما عدم إيمانه بنفسه، فيرجع إلى عهد طفولته المبكرة، إذ كان ابنًا وحيدًا يعيش مع أم ترملت في أول عهدها، وتعيش شبه وحيدة في العالم. وفي هذه الفترة التي أمضيت في عراك مستمر اقتنع بفكرة رسخت في نفسه كل الرسوخ ولم يسمح لنفسه مطلقًا بأن يفكر فيها، وهي أنه ليس على قدر كاف من الرجولة، وأنه لن يستطيع التعامل مع امرأة. وهذه الاتجاهات النفسية تقارن بالنقص الوجداني الدائم.

وحصل المريض على ما أعدته تدابيره الخفية من رغبة في العزوبة، فلجأ إلى التصرفات التي سبق أن تبعها مع أمه، فاتخذها مع خطيبته. وكان هدفه هو الرغبة في الانتصار. وهذا الاتجاه الذي أملاه الحنين الطويل إلى الانتصار أساءت المدرسة الفرويدية تفسيره بطريقة بارعة، إذ قالت أنه الحالة الدائمة لمضاجعة المحارم الناشئة عن الهيام بالأم. والواقع أن الشعور بالنقص في الطفولة، وهو شعور مكين، كان يدفع ذلك الرجل ليزود نفسه بكل وسائل الأمان. والحب في هذه الحالة كان مجرد وسيلة إلى غاية أو هدف، وهذا الهدف هو الانتصار النهائي على امرأة ملائمة. وهنا نجد علة الاختبارات والأوامر المستمرة مما سبب فسخ الخطبة. وهذا الحل لم يحدث بطريقة عابرة، ولكنه بالعكس أعد ودبر بطريقة فنية باستخدام الأسلحة القديمة التي سبق أن استعملها مع أمه. والهزيمة في الزواج كانت بعيدة كل البعد عن فكره لأن الزواج لم يتم.

بقيت أمامنا مسألة الانهيار العصي، وهي مسألة أعسر في تفسيرها. وما حدث في غرفة الطفولة تكرر هنا، «وانهزم»، مريضنا على يد امرأة، فالمريض بالعصاب يدعم تدابير وقايته، وينسحب إلى مسافة بعيدة عن الخطر. وقد استخدم مريضنا انهياره في تغذية ذكريات شريرة ليبعث مسألة الذنب مرة ثانية، ثم يحلها في إحساس كريه نحو المرأة. فهو يتصرف كما فعل في طفولته حين رفض أن يأكل، أو ينام، أو يفعل أي شيء، وحين لعب دور شخص في النزع الأخير من حياته، فهنا تعلو أسهمه، وتحمل حبيبته كل الوصمات والأوزار. فهو يرقي ويتعالى عليها

في الثقافة والخلق حتى يفوز بما طال حنيه إليه، فهو الشخص المتفوق. وبهذه الطريقة حصل على ما سبق أن شعر به، وهو واجب عرض تفوقه على الإناث.

«ولو عرف خططه الخفية لأدرك مدى سوء طبيعته وشرور مقاصده في كل تصرفاته، وعندئذ ما كان لينجح في الحصول على بغيته والتعالي على النساء، ولكن هدفه وخطة حياته وأوهامها طالبته بهذه الكرامة. وتبعًا لذلك فإن «خطة الحياة»، تبقى في اللاشعور ليعتقد المريض أن قضاء لا مفر منه حل به، بينما الواقع أنها خطة طال تدبيره لها والتأمل فيها. فهو وحده المسئول عنها لأنها كانت نشطة في داخله.

(**العقدة الكونية**) The Universal Complex[٥٢]

هي «التحليل الفردي»، إذا ما قورن «بالحليل النفسي»، وهي بناء قصة الحياة على أساس الحنين إلى التفوق، وعلى أساس إخفاء أوجه النقص غير المعترف بها، تلك هي العقدة البشرية.

الكونية. وهي في نظر " ادلر"، المفتاح الوحيد الذي نريده لتفسير تعقيدات الخلق البشري، وطريقة فشله في الأمراض العصابية والمصابين بها.

«من الميسور فهم كل مرض عصي على أنه محاولة لتحرير الفرد

---

(٥٢) عقدة أساسها خبرة عاطفية تنشأ مرتبطة بغريزة أساسية.

لنفسه من الشعور بالنقص، ولاكتساب الشعور بالتفوق»، والمبالغة في تقدير الذات، والاعتقاد في أنك فريد في نوعك، ثم التشبه بالخالق، كل هذا يشكل أنواع الصراع ويلونها. والمرض وأعراضه عذر تنتحله. فإذا أصيب أحدنا بالأرق اعتذر بقوله: «وماذا كنت أستطيع أن لا أفعل لو كنت قادرة على النوم».

وأعراض المرض حيل متعددة للمحافظة على الكرامة وحسن السمعة، وبغيتها هي الظفر بالعناية الاجتماعية. وهي مألوفة شائعة يتجنب بها الأطفال ما لا يحبون.

وأعراض المرض إنما هي بديل من الحنين الحصاني إلى التفوق وما يصحبه من مظاهر، ونوبات المرض العصي، واختيار المرض نفسه، يجب أن تجتاز بنجاح اختبار صلاحيتها لخطة الحياة.

والأحلام، واللازمات، وأنواع القهر، والهذيات والمواقف المختلفة، والمخاوف، والانحراف، والأمزجة، والنفاق، والادعاء، والمطامع، وجرائم الصغار، والجرائم عامة، والانفعالات، والخرافات، وأنواع الهوس، والخوف المرضى، وكل السمات البشرية التي تدل على الضعف والفشل في جميع مظاهر مآسيها وملاهيها، كل هذا ليس إلا صورًا شتى لقصة التفاخر بالتفوق الباحثة عن تعويض تافه لتغطية الهزيمة، والبيت الذي بناه إدلر ليس بيتًا بالمعنى المفهوم، ولكنه برج يرقب منه المظهر البشرى وقد صبغ بلون واحد.

جولة[٥٣] Masculine Protest:

تأكيد الرجولة نوع بارز من ضروب التفوق، ولما كان هو موضوع القصة البشرية، فإن الطبيعة، فيما يظهر، تكفلت بتقديم الدافع اللازم لهذا التفوق فشجعت نصف سكان العالم على فرض سيادتهم على النصف الآخر الذي أبت السخرية لا الشهامة إلا أن تسمية بالنصف الأفضل... «وتأكيد الرجولة»، معناه أن الإنسان يفخر بأنه رجل، ويستهين بأمر المرأة. وفي حالة الإناث، فإن " تأكيد الرجولة»، يعبر عن نفسه برغبتهن في أن تكن رجالًا، فتتصرف الواحدة منهن كالرجل، وتوثر مظاهر الرجال. ومن هذا المبدأ ظهر «التخنث النفسي» Psychical Hermaphrodism.

وهذه الحالة تعرض مشكلة تربوية، وهي التوفيق بين نصف الجنس البشري، وبين حالة لا يمكن تغييرها رغم كرهه لها. ولهذا فكثيرًا ما تظهر اتجاهات الرجولة في الإناث المصابات بالعصاب، فتقدم الدليل على معنى ما يبدو عليهن من أعراض مهما أجدن إخفاء ذلك المعنى.

القيمة Value

ومن الواضح أن كثيرًا من هذه التعاليم، إذا ما هذبت في النطاق المعقول، فإنها تنسجم مع الخبرة العامة. وهي سهلة الفهم، ومغرية

(٥٣) تعبير استخدمه إدلر ليعي الرغبة في التفوق أو الكمال بسبب الشعور بالنقص باعتبار أن الأنوثة ناقصة أو غير كاملة وترجمها بعض النفسيين " المطالبة الرجولية»

للناس ما يؤهلها لأن تكون موضع سلسلة من الأفكار والتأملات الشائعة في الحياة، وما ينشأ فيها من عقبات كثيرة.

والسلوك البشري لا يمكن تفسيره تفسيرًا صحيحًا على أساس الدوافع، فهو في حاجة إلى تكملته بالغايات والأغراض والأهداف. وقد كانت تكملة «إدلر»، للتحليل النفسي ضرورية. ومساهمته البارعة تبين أن تدعيم المدركات يتيح لنا بناء نظام يوضح السلوك البشري بطريقة منطقية تقوم على أساس الحنين إلى التفوق، وحيل التعويض التي تنشأ لتغطية النقص؛ كما نستطيع أيضاً أن نبني هذا النظام على أساس الناحية الجنسية في الطفولة.وما يتشعب منها من نتائج افتراضية في علاقات الحياة فيما بعد.

ومن حسن حظ النقد المنطقي للتحليل النفسي، أنه قد يوجه بغير سوء نية إلى أحد الحلول فحسب، بل أنه ليوجه إلى الطريقة العامة في الدراسة، وهي طريقة يشترك فيها كثير من الحلول، فكلها نشأت من نبع واحد.

الفرويديون الحديثون Neo – Freudians

استخدم فالنتاين N. Valentine هذه التسمية الملائمة المريحة، وأطلقها على مجموعة من النفسيين وأطباء النفس من يعترفون حقائق هامة في المبادئ الأساسية للتحليل النفسي، ولكنهم لا يسلمون بتعاليمه كلها. وهم ينظرون إلى البناء بعين الناقد، ويتخلون عن كثير من النتائج

لأنها غير سليمة أو تأملية أو سخيفة. وهم يعتقدون بأن الجزء الثمين من التحليل النفسي من الجائز، بل من الواجب، أن يضم إلى المبادئ المعترف بها في علم النفس وطبها. وهم يرثون للمغالاة في عباراته، ويحتجون على منطقة المفكك، وفروضه القائمة على غير أساس. ويدركون أيضًا الخطر الكامن في ممارسته. ويشيرون إلى أن كثيرًا من علم النفس الجديد New Psychology ـتسمية أخرى للفرويدين الحديثين- إنما هو حديث معاد عن العلاقات المألوفة، ولكن من زاوية جديدة. وهم يسعون إلى الظفر بأساس حيوي Biological لمدركاتهم، ولإدماجها في الأسس المقبولة للسلوك العقلي سواء أكان عاديًا أم شاذًا. وهم ينصحون بالسير في المشروع بمنطق معقول، واتجاهات محدودة، وفي حرص وحذر.

والفرويديون الحديثون يمثلون اتجاهًا انتقاديًا مقرونًا بالعطف على التحليل النفسي. وليس لهم من مرجع حاسم يوضح موقفهم كما أنهم لم يؤلفوا مؤسسة تشمل النخبة المؤيدة لهذه الحركة. وممثلو هذا الاتجاه الجديد لا يعدون من تلاميذ فرويد أو أتباعه بالمعنى المفهوم، وإنما أطلقت التسمية عليهم لما لوحظ من اتفاقهم في البيانات والنتائج رغم أنها من عقول مستقلة. وهم يقبلون ما أنتجه يونج وإدلر وفرويد على السواء، ولكن بنظرة فاحصة. ومن ثم يتفاوت اقترابهم أو بعدهم عن تعاليم فرويد ومدى الأخذ بها.

ومن العسير أن نقول أن الصدفة وحدها هي التي جعلت أكثر الفرويديين الحديثين من البريطانيين[٥٤] الذين أثارت تعاليم فرويد اهتمامهم في الفترة المتأخرة من تكوينه، وبعد أن اختفت حركة العداء الذي نشبت ضده حين زحفت تعالمه لتغزوا المجال الطبي. وقد انحازوا إلى الفرويدية وهي مجردون من الإحساس بالولاء السيد أو نظام، انحازوا إليها بدافع تلك الحرية الكاشفة التي أغامر فأسميها الولاء الانجلوسكسوني للمنطق والذوق السليم، مما يتنافى مع التأمل المطلق، وتأليف النظريات المتعارضة التي أتسمت بها التقاليد الأكاديمية التيوتونية.

ويمكننا أن نقول أن هذه الحركة ما كانت لتنمو بهذه السرعة، وتحتل مكانتها في المقدمة لولا الخبرة الحاسمة التي جنيت خلال الحرب[٥٥]، فإن الشعب البريطاني تلقى صدمة أخلاقية هزت اطمئنانه عندما عرف بالعدد الكبير لحالات وصدمات القنابل، Shell Shock وغيرها من حالات الانهيار العصبي التي انتابت جنود الجيش البريطاني. ويقول «ريفرز» Rivers الذي يعد زعيم الفرويد بين الحديثين بغير منازع، أنه نادرًا ما عالج حالة في الحرب بغير أن يستعين بالنظريات الفرويدية التي ساعدته على فهم العلل بطريقة أفضل، ويقول «ولم يمر

---

[٥٤] ينطبق هذا على من انحازوا في تفسيراتهم إلى مبادئ فرويد، أكبر مما ينطبق على مجموع النفسيين وأطباء النفس. أما الفرويديون المعتدلون الذين يقبلون مبادئه الأساسية ولكنهم يتفاوتون في تخليهم عن الجانب الأكبر من النتائج المبالغ فيها أو غير المنطقية، فإن عددهم يزيد كثيرًا على عدد أتباع فرويد في مختلف الاتجاهات. ومن هذه الفئة يؤلف النفسيون الأمريكيون عددًا كبيرًا. وقد ظهرت في ألمانيا مجموعة تسير في الاتجاه ذاته. وسنعرض لهذه المسألة في الفصل الختامي من هذا الكتاب. (المؤلف)

[٥٥] يقصد الحرب العالمية الأولى التي بدأت عام ١٩١٤ (المترجم).

على يوم واحد في أعمال العيادة، ولم أستخدم فيه نظريات فرويد بطريقة مباشرة لتشخيص الحالات وعلاجها».

ورغم هذا فإن "ريفرز" يطرح جانبًا من نتائج فرويد أكثر مما يقبل. وما يقبله يحيطه بسياج من التحفظات الهامة والانحرافات في الفهم وفي التطبيق المحدود. ويرجع تاريخ نشوء حركة الفرويدية الحديثة إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، رغم أن الفرويدية كانت مقبولة إلى حد ما قبل هذه الفترة. وفي رأيي أن ما قدمته "الفرويدية الحديثة"، هو أثمن شيء قدم للتحليل النفسي. وهو يدل على سيرها في الطريق الملائم للمجموعة العلوم.

وسأقتصر على هذا في المجال الحالي، على أن أعود إليه فيما بعد من حيث هو نقد للتحليل النفسي. وفي رأيي أيضًا أن كتاب ، الغرائز واللاشعور، Instincts and The Unconscious للمرحوم و. هـ. ر. ريفرز M . H. R. Rivers هو أثمن كتاب في المطبوعات الفرويدية. ويظهر من عنوانه الفرعي ونظرية حيوية للأمراض العصبية النفسية، Biological Theory of the Psycho - Neuroses أنه محاولة في هذا السبيل. ولست أدرى مدى استجابة فرويد لهذا العمل الذي يعد تحديًا أكثر منه تأييدًا لطريقته في تناول المشكلات المشتركة في الاتجاهين، ولكني أتساءل أن كان يعترف على أي وجه "ريفرز" كواحد من شيعته.

والأمل في التغلغل إلى أعماق التنفس لمعرفة بواعث الأمراض العصبية النفسية، هو الذي دفع فرويد إلى عمله المرموق، وكان هو أيضًا الحافز إلى قيام حركة الفرويدية الحديثة. ولقد استقر الطب النفسي قبل فرويد، وبفضل بحوثه، على وجوب زيادة المعرفة بالعوامل النفسية في الاضطرابات العقلية. وهذا واضح بجلاء في كتاب الدكتور «برنارد هارت، Bernard Hart سيكولوجية الجنون ١٩١٢ Psychology of Insanity وللعنوان وحده أهميته. وهذا الكتاب الصغير المعروف، من مؤلفات الفرويدية الحديثة في بدء ظهورها ويقول مؤلفه.

"أن عددًا كبيرًا من المبادئ العامة المذكورة في هذا الكتاب يعزى فضله إلى عبقرية البروفسير فرويد النمسوي ولعله أكثر المفكرين ابتكارًا وخصوبة من عملوا في ميدان علم النفس الشاذ. ورغم أني لا أستطيع أن أحدد بسهولة مدى ديني له، فإني على أية حال لست مستعدًا لاحتضان كل المجموعة الواسعة من التعاليم التي وضعها فرويد واتباعه، وأكثرها في رأيي لم يتأيد بعد، بل أقيم على أساس غير مكين. ومن جهة أخرى فإن كثيرًا من المبادئ الأساسية الفريد تقبل شيئًا فشيئًا، ويزداد انتشارها، كما تزداد الأدلة المؤيدة لها بسرعة كبيرة.

اقتباس من فالنتين Valentine

إننا نستطيع أن نربط نظريات فرويد _عد تعديلهاكما يتطلب النقد_ بالقوانين الأساسية للعقل، والمعروفة في علم النفس، فالتعاليم الجوهرية في التحليل النفسي يمكن أن تنسجم "لتساير على النفس القويم"

Orthodox ويمكن اعتبارها كأمثلة غير معروفة للمبادئ المعترف بها. وهذا في الواقع صحيح بقدر ما يمكن اعتبار علم النفس الحديث صحيحًا، ولكنه ليس جديدًا تمامًا.

اقتباس من مكروجال Mcdougall

"أعتقد أن البروفسير فرويد أدى لتقدم علم النفس خدمات تفوق أي باحث آخر منذ أرسطو Aristotle. وفي الوقت نفسه، لا أستطيع بأية وسيلة أن أقبل كل تعاليمه، وأعتبر كثيرًا من تعاليم التحليل النفسي الشائعة معتلة الأساس، وخيالية إلى حد ما. ولكني أعتقد أن خدمة جليلة تؤدى إذا استخلصت منها التعاليم القويمة والصحيحة، ثم أعدت لتنسجم مع البناء الأساسي لعلم النفس".

وهناك عدد آخر من النفسيين الذين لم يشتركوا مباشرة في حركة التحليل النفسي، ولكنهم لجأوا إلى البحوث الفرويدية. وهم ممن أخذوا بمزاياها. ولكنهم نفروا من المبالغة، وانعدام المنطق في وصولها إلى نتائجها. هؤلاء النفسيون يمكن أيضًا اعتبارهم من الفرويديين الحديثين، ومنهم أقتبس كلمة للنفسي الأمريكي "دانيل ب. ليرى" Daniel B. Leary

"التحليل النفسي على هيئته الأولى فلسفة تأملية عميقة أكثر منه علم. وهو كنظام يمارس، وكنظريات، يمكن أن يصير نظرية تطورية ديناميكية للشخصية، فضلًا عن صيرورته علاجًا عمليًا ناجحًا، وأداة وقاية

من شذوذ الشخصية. كل هذا جائز إذا ما نقح التحليل النفسي وفقًا للمعلومات الحالية الأكثر مسايرة للعلم، والخاصة بالطبيعة البشرية، وسلوك الإنسان، أي عند ما تفحص في دقة دعاوى التحليل النفسي من حيث الحقائق والنظريات، ثم تصاغ بعض نتائجه الأساسية في عبارات أخرى تقوم على معلومات نفسية أفضل، وفي هذه الحالة لن يظل كعلم نفس منفصل مستقل، بل سيصير نسيجًا نفسيًا جديدًا ودراسة نفسية حديثة لبعض المشكلات الشائعة للسلوك البشري، وأساسًا لطريقة جديدة.

ويتجلى موقف الفرويدبين الحديثين في اعترافهم بالحاجة إلى تنقيح هام لمبادئ التحليل النفسي. وبقي علينا أن نبين بعض المدركات الرئيسية التي يقبلها ويستخدمها النفسيون وأطباء النفس من الفرويديين الحديثين.

يقبل الفرويديون الحديثون المبدأ القائل، بأن العوامل النفسية تلعب دورًا هامًا في تكوين الاضطرابات العصابية، وأن هذه العوامل تعمل بطريقة ما في اللاشعور، وأنها تتركز حول مسارح الصراع، ومن نماذجها الصراع بين الاتجاهات الغريزية القوية، وبين أنواع القيود التي تفرضها التقاليد الاجتماعية المكتسبة. وهم يرون أن هذه الاتجاهات في عملها هذا تتضمن حالات وقاية النفس، والجنس، والمجتمع، وما يتفرع عنها من عوامل كثيرة، وما ينشأ عن تفاعلاتها بعضها مع بعض في عقل الإنسان وجسمه.

وهم يوافقون أيضًا على أن العقد النفسية أنما هي مظهر صراع الدوافع الغريزية مع العوامل التي تحيطها، أو مع القيود المفروضة عليها، أو مع النتائج المتشعبة منها، والمتعلقة بها. وتظهر هذه الميول الصراعية، والحيل التي تكشف عنها الأحلام البشرية في السبات الخلقية، وفي كثير من ألوان السلوك البشري المختلفة. وهم يرون أن كل هذه المسائل التي اعترفوا بها يمكن أن تندمج في المعلومات المستقرة للعمليات النفسية.

وهم يقرون صلاحية كثير من الحيل التي تظهر في أثناء التحليل، والتي يمكن بها تعليل الظواهر العصابية، والسوية من أمثال التبرير[٥٦] Rationalization والتعويض[٥٧] Compensation والإسقاط أو القذف[٥٨] Projection والإعلاء[٥٩] Sublimation والأبدال[٦٠] Substitution والرمزية Symbolism. وهم يرون أن مجالًا فسيحًا من السلوك يتكشف إذ ما اعترفنا باللاشعور، ومبادئ التفكير الخيالي والواقعي، وبالكشف عن الدوافع الخفية، وبتقدير البواعث النفسية المتضمنة لشيء من الحتمية.

---

[٥٦] تبرير تصرف بعد حدوثه. وهي في الغالب عملية دفاعية لتبرئة الفرد من الاتهام أو الشعور بالجرم.

[٥٧] عملية التعويض ــ في مدرسة التحليل ــ يحاول فيها الفرد أن يغطى نقصًا أو علة بالمبالغة في إبراز ما هو مرغوب فيه.

[٥٨] الإسقاط أو القذف في التحليل ــ وفيه نضفي بغير شهور على الآخرين عوامل نفسية وصفات هي في الواقع فينا مما يعد كدفاع ضد مشاعرنا غير السارة.

[٥٩] الإعلاء ــ إجراء من اللاشعور لتصريف النشاط الجنسي إلى عمل غير جنسي يقره المجتمع.

[٦٠] إبدال مؤثر بآخر. المترجم

وهم يقدرون أهمية المراحل الأولى من الحياة من حيث توجيهها لميول معينة، وتكوينها للعادات التي توطد سلطان هذه الميول. ويعترفون كذلك بالأهمية الخاصة للصلات الشخصية الوثيقة في علاقات الأسرة، وأن كل دورة الحياة تسير في اتجاه تقدمي يتعرض مساره الطبيعي للاضطراب بفعل توقف النمو أو النكوص. وهم مستعدون لتطبيق هذه المبادئ بطريقة بنائية صحيحة على وسائل التربية في كل مستلزماتها، وأن يركزوا جهودهم على ناحية تكامل الشخصية، وأن يعملوا على ترقية الوسط الاجتماعي كي يرضى الدوافع العادية السوية بغية تزويد هذه الدوافع بما يساعد على الظفر بالإعلاء.

ومن الطبيعي أن هذه المدركات البنائية تتضمن مسائل مرفوضة. على أن الفرويديين الحديثين في تمسكهم بالولاء العام للوسائل العلمية يحتجون، ويعترضون على الاستخدام الدائم لفروض لا أساس لها، واستنتاجات خيالية، ونتائج مشكوك في أمرها.

وهم يودون تحديد التأمل على المدركات القابلة للظفر بتأييد الاعتبارات الحيوية، ويأسفون للانغماس المجرد من المسئولية في تطبيقات خيالية لمبادئ تحوطها الريب، وقد اتجهوا إلى إنقاذ المبادئ الجوهرية للتحليل النفسي، وإلى صياغته في قالب علمي، فإن المسار السيء الحظ لنمو التحليل لا يمكن حذفة، وإن كان من المحتمل تعديله.

وعندما يصل تنقيح الفرويديين الحديثين إلى هدفه، فمن الجائز أن لا يبقى إلا القليل من مؤلفات التحليل النفسي التي تزيد على ألف كتاب. وهم يرون أن البناء نشأ ببداية صحيحة، ولكن ما تبعها كان كاذباً، فيودوا أن يجردوا البيت الذي بناه فرويد من واجهاته النابية، والتفاصيل الكاذبة، ويضموا البناء الشرعي إلى بيت علم النفس الشامل لكل شيء.

الباب الخامس

تطبيقات
بواعث خفية

روى فرويد قصة التحليل النفسي في عرضه لتاريخ حياته. وفيما أذكر لم يصف تلك اللحظة التي واتته فيها، لأول مرة، فكرة أن التجديد المتواضع في تفسير أعراض مرض عصي يحمل بذور فلسفة. فإن هذا الاحتمال أنتظر توسع الفكرة الأولى، وتطبيقها على منتجات أخرى للنفس في ماضيها وحاضرها. ومن الاطلاع على مؤلفات فرويد واحدًا بعد آخر يظهر أن الفكرة ازدادت شيئًا فشيئًا في توسعها وشمولها.

ولقد ازداد التحليل النفسي استنارة من نواح عدة متشعبة بشأن وسائل وأسباب تصرفاتنا كمخلوقات بشرية، وأن نكن في بعض الأحوال شاذين في أعمالنا – وبشأن لماذا وكيف تشكلت منتجات النفس ذاتها بالشكل الذي تتخذه. وتقلب التحليل النفسي من حيث هو أداة لفحص التصرفات، فصار مجهرًا نفسيًا وتلسكوباً، وجهاز أشعه أكس على التوالي. ومن ثم أتسع البيت الذي بناه فرويد ليكون عهدًا جديدًا للعناية بالأمراض النفسية العصبية، ومعهدًا للعلاقات البشرية. وكان على التحليل النفسي أن يعمل ليفسر كل ابتكارات النفس، وكل تعبيرات دوافعها

المختلفة للوقاية والدفاع، وأن ينشئ المسالك التي ينبغي أن تسير فيها الحياة الرخية، وأن يوجه النفس إلى السير في مضمار التقدم.

لم تغفل عين فرويد التحليلية عن شيء، بل تناولت تصرفات الإنسان من أتفهها إلى أخطرها، فأدى تعقب اللاشعور إلى الأحلام، ففي النوم نتخلى عن الرقابة، وعندئذ يحتضن "اللاشعور" البواعث الخفية. وقاد التساؤل عن المنافذ الأخرى لهذه البواعث إلى موضوع الفلتات التي تبدو لنا كهفوات عارضة ومؤقتة، فقدمت، بدورها مواد جديدة. فإذا ما سرنا في الطريق نفسه مسافة أبعد، ولكن قرب السطح. وبشعور أكثر ألتقينا بالمزاح، فهو أيضًا في بعض أشكاله يعزى إلى البواعث الخفية. وكانت النتيجة كتاب "الفكاهة واللاشعور" فكان أول كتاب خفيف لطيف في التطبيقات.

وموضوعها في التحليل النفسي من أبعد الموضوعات عما ألفناه في كتب الفكاهة والملح؛ ولا يقل بعده عنها عن بعد كتاب "تفسير الأحلام" لفرويد عن كتب تفسير الأحلام التي تتداولها الأيدي، وحجج فرويد في هذا الكتاب قد تكون في بعض الأحيان بعيدة متكلفة، وتوحي بأن النكتة والدعابة ليست مسألة ضحك وسخرية، بل هي تحمل دلالات هامة ؛ على أن الموقف الذي أثارها يصح أن يكون مجالًا للتحليل النفسي. والفرق شاسع بين الدعابات والأحلام في حبكتها وأغراضها، ولكنها تشترك إلى مدى ما في الأجهزة التي تحدثها، فكلاهما تحمل الجد في قالب الهزل في إبرازهما للواقع، وكلاهما

تشيران إلى الكبت، وتعالجان المسائل الخاصة والبعيدة الغور، وتعرضان على المسرح عملية انطلاق من قيود التوتر القاسية للأوضاع الفعلية والأدبية.

وبتفصيل أكثر وإيضاح أقوى، أن المعنى المزدوج شديد الصلة بالباعث الحنفي، والفلتة التي تخون المتحدث وتنطقه بما يؤثر كبته، تعد تندرًا عليه، وكما أن الزلات يحتمل أن تسرك، فأنها يحتمل أيضًا أن تذهلك. ومن الجائز أن نجد في المزاح لونًا من التحدي، ومعركة في «القفش» ومبارزة في الوخز والتبكيت بين شخصين. وما نضحك منه عادة هو ما نشعر بأننا أسمى منه وفي التحول غير المنتظر، وهو عنصر المفاجأة والتحريف وغيره من العوامل، يزاح الستار عن نفس نظام الوسائل المشابه لما يحدث في الأحلام. فروح الدعابة تعمل للحياة السليمة، وهي تتصل بالضعف البشرى، فتضع المرأة أمام الطبيعة البشرية لتعكس ما يكشفه التحليل النفسي بطريقة أخرى، وهو في الغالب مسائل جدية لها شأن كبير.

وقد شغل علم الفكاهة والدعابة مفكرين آخرين من حاولوا دراسته كلون من الإنتاج الذهني تحت تصرف الشخصية: فعنى به "سولي" Sully بطريقة أخاذة. وكتب فيه بعبارات حديثة، وأن تكن كتاباته على منوال علم النفس الفيكتوري، لجعل الضحك ومناسباته في نطاق التعبيرات الانفعالية الحيوية. وعالج برجسون Bergson موضوع الأشياء المثيرة للضحك بشكل ذي صبغة فلسفية، فاضي عليها مكانة ممتازة.

وكان في دراسته ميل إلى الناحية الفلسفية، وأعتمد فيها على عدة مبادئ كمبدأ التأثير الهزلي الذي يمثل المسائل الحيوية في أخرى آلية.

ومن الجائز أنهم أحسوا بالبواعث التي أدركها فرويد في مختلف أنواع الدعابة، ولكنهم لم يضعوا لها قواعد مثله وفي هذا السبيل كما في سواه، فأن عقلية فرويد المبدعة البارعة تتقدم سواها، فيحلل مواقف قديمة ترجع إلى عهد أريستوفان Aristophane، ويضع قواعد للبواعث الشخصية. وبهذا اتسعت ثروة على نفس الفكاهة والدعاية إذ ألقي عليها ضوء جديدًا، ومن الجائز أنه تجاوز الحدود في تقديرها. ولكن القواعد التي وضعها كانت من صنعه.

الأسطورة والعادة والحكاية

من هذا العرض الأولى ننتقل فورًا إلى أهم تطبيق واسع النطاق لمبادئ التحليل النفسي. ومن الآراء السديدة، القول بأن طرق العقل ـ كما كشفها التحليل النفسي ـ كانت تواصل عملها منذ أن أمسك العقل بعجلة القيادة. وقد خلفت هذه الطرق وراءها رواسب في منتجات الثقافة البشرية لتظل أثارًا عقلية في مراحل الزمان. فتلك المؤسسات، والطقوس، وقصص الأبطال، والكتب الدينية، والاعتقادات الشعبية، كلها ابتكرت بتأثير بواعث واتجاهات ليست شعورية كاملة، ومع ذلك، فأنها دمغت بطابعها العادات والمعتقدات كما ظهرت في الأساطير وحكايات الجن والخرافات وغيرها، مما صار الوسيط الشعوري لتقاليد القبيلة، والتعبير الحي التنفس خلدها الدافع اللاشعوري إلى التكرار.

ونتيجة هذا كله تدل على وجود تيار سفلى بدائي صحب الأغراض المتزايدة في العصور المختلفة. والفكرة تجعل التحليل النفسي يتحول للاستكشاف في عصور ما قبل التاريخ. وهي فكرة ليست جديدة في مجموعها، فهي تظهر في كثير من الدراسات الحديثة عن تطور الإنسان؛ وتفسير علمائه للعبادات، والعادات وخاصة في تحليل ما لا يزال باقية منها على اختلاف أنواعها اختلافًا عظيمًا. والدراسة الفرويدية تكمل دراسات الباحثين في علم الإنسان، وفي علم الاجتماع، وتوضح الحجة في تعبير جلي.

وقد ربط فرويد في كتابه "طواطم ومحرمات" Totem and Taboo بين الوسائل البدائية النفسية الخاصة برموز الوقاية والمنع، وبين الوسائل الخاصة بأنواع المحظورات الشخصية والكبت والطقوس والقهر العصابي في الأفراد السويين والمرضى بأعصابهم، فالنفس البدائية تصطنع وتبتدع ألوانًا من الإنشائيات المتشابهة الأحلام، والمماثلة لمواقف الصراع البشري المرهقة.

ولقد صارت بعض النظم المعينة من الأساطير أحلامًا للجنس كله. وبعض العبادات تبدو كشيء خيالي لا معنى له من التقاليد العمياء، ولكنها يحتمل أن تفسر وتقرأ على ضوء التحليل النفسي. أما مدى صدق مثل هذه التفسيرات بالنسبة لتاريخ التطور البشرى، فموضوع يجب أن يدرسه ويقرره الأخصائيون في هذه المسألة. ولا يتسع إلى المقام للحديث عن الطريقة التي يحاول بها المحللون النفسيون حل

المشكلات الثقافية التي تثيرها هذه التفسيرات. وقد أحتضن بعضهم هذا الموضوع وجعلوه مجال بحثهم المفضل كما فعل "رانك" Rank، فالبطل هو مركز الثقل في هذا المجال. وقد نسجت طريقة ولادته، وممارسته لعمله في مؤلفات وتعقيبات تحليلية للنفس السلالية، فشخصية "سندريللا" تمثل حالة في الأسرة. فهي موجودة في الحقيقة وفي الخيال، فأن العادة السلالية تتشبث بالبقاء ونحن جميعًا ننساق في خيالات تعويضية، ونجد في إغراء حكايات الجن ما يحقق رغباتنا ويعزز ميلنا إلى السحر في مرحلة الطفولة. وللنفس تاريخها، وقد كانت صغيرة في تاريخ السلالات كما هي دائمًا في كل طفل. وهي تظل محتفظة بمنطقها في الثقافة البدائية. ورغم أن التاريخ البشرى تمكن من تعديل البواعث الإنسانية، فالمدنية تدعو إلى التصنع والتحرر من الوهم.

وفي علم نفس الأعماق اتجاه إيحائي من البصيرة، وهو يقدم للتحليل النفسي مفتاحًا للعمل في علم الانتروبولوجيا من حيث اهتمامه بناحية التحليل النفسي، فالجانب الأكبر من الأساطير والعادات والعبادات وحكايات الجن والخرافات والاتجاهات العقلية للأخذ بالمعتقدات الشعبية عامة، كلها تتحرك وتعمل وهي أقرب إلى المستوى البدائي منها إلى المستوى الشعوري المنطقي. وهي في عملها هذا الطفل في ميلها إلى الحدس والشعور المشتت وبواعث اللذة والخوف التي تحركها. وحبكة تلك الشواهد ومحتوياتها تكشف عن بيانات ونتائج من طراز مماثل لما يعمل في الطبقات البعيدة لتعقيدات الخيال والأمراض

العصبية والنفسية. والتشابه بين الحالتين سليم مما يوجب تعقبه بشكل سليم كذلك.

ويتجاوز المحللون النفسيون المشتغلون بتطور السلالات البشرية المنطق المقبول عندما يبالغون في تقدير التشابه بين تطور النفس البشرية في الفرد وبين تطورها في الجنس البشري، ثم يعدون الفروض التي لم تثبت صحتها بعد، ولكنهم يعتبرونها حقائق ثابتة. ولا ريب أن الفكرة الأصلية ثمينة. وهي مطلوبة في مجال

العادات الحيوية، وهو مجال أكثر خطورة. ونظرية التلخيص[٦١] التي قبلها الناس وارتضوها في وقت ما، لم يعد في الإمكان إحياؤها، والأخذ بها من جديد؛ فوجه الشبه فيها لم يعد مقبولًا. فالأطفال لا يسبحون في الماء بسبب نزعة أجدادهم إليه في العصر الباليوزوي[٦٢] Palaeozoic، وهم لا يصعدون إلى قسم الأشجار لحنينهم إلى ما كان يفعله أجدادهم أشباه القرود من قبل. وحتى التاريخ غير الطبيعي يثير شكوكًا كثيرة بشأن علم النفس النشوئي.

أما اللاشعور الجماعي عند يونج، فإنه يفرض أن تجارب الإنسان البدائي المادية تظل حية، وتعاود الظهور عندما تريد النفس البدائية التعبير عن ذاتها سواء أكانت يقظة أم نائمة. ومثل هذا التجسد النفسي

---

[٦١] نظرية التلخيص Recapitulation Theory وهي تقول أن الفرد يلخص في عوه مراحل التطور في الجنس البشري،

[٦٢] أحد العصور الجيولوجية البعيدة المترجم

قليل الإغراء لمن تشبعت عقولهم بالمعلومات عن علم الحياة. أما فرويد فيقنع بالاستنتاج الأكثر ميلًا إلى المنطق[٦٣]، ويرى أن أنواع التشابه تعبر عن مراحل ثقافة متوازية. وكلاهما سواسية عندما يريان في الرمزية نزعة نفسية بدائية دائمة، وما عرضه "فرويد" في كتابه "أحلام وأوهام" Dreams And Delusions، وفارندونك Varendonk في «أحلام اليقظة Day Dreaming، و"يونج" في دراساته المستفيضة بشأن الخيالات اللاشعورية في عقلية الشعر الروحانية، كل ما قدمه هؤلاء الباحثون بين اتجاهات عقلية متشابهة، وإن اختلفت في التعبير. فالإنسان في صنعه للرموز لا يقل عن شأنه كيوان صانع للآلات. فهو يحلم، ويتخيل، ويؤلف القصص، ويقرض الشعر، ويبتدع الرموز، ويخدع نفسه بالاعتماد على أقدم وأكبر طرازي تفكير ألفهما فرويد بشكل رائع. وبهذه البصيرة ألفت الأساطير، والعادات العامة، وحكايات الجن، وصارت من حيث قيمتها الخيالية مادة لبحوث التحليل النفسي الثقافي.

ومرة ثانية يجب أن نعرب عن تقديرنا لعقلية فرويد الخصبة، فإن عامل التحليل النفسي في الثقافة البدائية صار من الممتلكات الدائمة. وقبل عهد فرويد كان على تطور السلالات البشرية، ومنه جانب كبير مما بقي من تقاليد الشعوب، يتسم بطابع آخر. أما الآن فإنه وصل إلى سن الرشد في أكثر من معن.

---

(٦٣) لسوء الحظ أن هذا الحذر غادره تمامًا عند تقديره لنمو النفس الجنسية Psychosexual في السلالات البشري. (المؤلف)

الدين

الدين أنتاج ثقافي شامل، وهو تعبير مباشر لعلم نفس الأعماق، إذ أنه يحتل مركزًا جماعيًا بوصفه مؤسسة. وقد أستقر على نفسه من قبل مستقلًا عن أضواء التحليل النفسي، فكان من الطبيعي أن يعاد تفسيره على هدى الدراسة الجديدة التي طبقت في أول الأمر على مشتملات التعاليم الدينية وطقوسها وحفلاتها.

والدين هو أسلوب الحياة عند كثيرين، وفيه نمت وساوس وريب بوصفها نظامًا خاصًا للمحظورات، وفي مراحله المتقدمة أدى إلى ظهور اتجاهات التقشف والتطهر، وشجعها حتى نضجت. وضم أيضًا إلى عالمه بمجال الجنس بقدر ما سمحت به الحياة الدينية وخاصة في الديورة، بالابتعاد عن الجنس ابتعادًا شاملاً، وأحتضن أيضًا مهمة شفاء المرضى من عللهم حتى صار في وقت ما من ومسائل طب الأمراض النفسية. ونرى نموذجًا منها في مسألة الاعتراف التي ابتسرت مسألة التنفيس، وإطلاق العواطف المكبوتة في التحليل النفسي. وهذه أمثلة قليلة من العمليات الدينية، وما يتصل بها من علاقات واتجاهات تولى التحليل النفسي تفسيرها.

والدين يعالج المسائل المقدمة، والروحانية، والشديدة الصلة بالفرد، والبدائية. وتجد الفرويدية ما يؤكد رأيها بشأن الجنس في تلك الطقوس الدينية الخاصة بالأداة الذكرية عند الرجال، وتنوعها من العبادات البدائية إلى الطقوس السرية المنظمة. وهناك تعويض المحرومين

الذين وعدوًا الجنة، والإحساس بالجرم الذي أدى إلى التوعد بالنار. وأوحت العلاقات الأبوية بعبادة الأجداد، كما أدى غموض الأنوثة إلى عبادتها وتحاشيها. وفي شتى المراحل نشأت رمزية مستفيضة تتضمن المنتجات العاطفية البعيدة الغور والتي يتعذر فهمها بالمنطق، ومنها معجزات إنجاب الأطفال والخلق التي احتلت مركز السيادة.

ونفس الريب والعقبات التي تكفل دفع إنسان ما لزيارة المحلل النفسي في عصرنا المتمدن كانت هي نفسها التي تدفع إنسان العصور الماضية لزيارة الكنيسة أو المعبد ليظفر بالراحة فيها. فالإيمان، والاستقرار، والخلاص والشجاعة على تحمل الأعباء، والصبر على المكاره، وإنكار الذات، كلها غايات مشتركة. والتحليل النفسي ذاته قوبل بترحاب ديني حار، وهتفوا له كما لو كان حلًا سحريًا. فالإيمان الديني يستدعي كثيرًا من التعبيرات الشاذة كما قال وليم جيمس William James قبل العهد الفرويدي. والتحليل النفسي يمكن أن يطبق على الدين وشتى أنواع العبادات والنحل.

وفي مجال التطبيق ذاته يمكن إضافة المعتقدات ذات الصبغة الدينية. وقد قدم «يونج» تفسيرًا تحليليًا لبعض مظاهر السحر، والتنجيم، والوساطة، واعتمادها الكبير على حالات اللاشعور. وقد بحثت حالة التخاطر أو قراءة الأفكار Telepathy بغية الظفر بتأييد لها، فإن دراسة «يونج» للحدس[٦٤] Intuition تمس هذه المسألة من إحدى زواياها.

---

(٦٤) الحدس: وتعني الإدراك أو الحكم العاجل، وهو في المادة عاطفي وبغير سند من الشعور.

وقد أدى التوسع في تطبيق تعاليم التحليل النفسي وتغلغلها في عدة اتجاهات إلى جذب عدد كبير من العقليات ذات الهويات والمصالح المختلفة. فمنتجات النفس البشرية وعملياتها هي التي تكشف عن إجراءات التحليل النفسي. والبراعة والحكمة في تطبيق هذه الإجراءات هي التي تقرر أهمية الموقف. ولعله من الأوفق أن نضيف رأى فرويد الخاص، ففي كتابة "مستقبل خداع" Future of an Illusion أعتبر الدين تحقيقًا بارع التنميق للرغبات. وليس له في عرفة من سند عميق أكثر من خلق الجنة في الماضي، والمدينة الفاضلة المثالية في المستقبل.

التربية

تقوم كل من التطبيقات المتعددة للتحليل النفسي على أساسها الخاص بها؛ وهي تطبيقات كثيرة، وتختلف باختلاف الاتجاهات والاهتمامات البشرية. ولهذه التطبيقات ناحيتها العملية التي تستهوي إلى حد كبير المزاج العملي للعقل الحديث. وتنعقد الآمال على التحليل النفسي للوصول إلى مبادئ تربوية حكيمة، فمن الغايات والأهداف الأصيلة المشتركة تجنب الإصابة بالأمراض العصابية، وتهذيب الأخلاق في مجموعها تهذيبًا سليمًا.

وقد اعترف الناس بإمكان السير في هذا الاتجاه، وكان من زعمائه الدكتور "أوسكار بفيستر" Oskare Pfister القسيس مدينة زيوريخ، فطبق تعاليم فرويد في التربية الأخلاقية على الأطفال سواء أكانوا شاذين

أم عاديين. وكان يحاول أن يفهم بطريقة متشابهة الاتجاه العام للمشكلات الاجتماعية والعائلية التي تعرض عليه في عمله. وعنى كريتون ميلر Chriton Miler في كتابة علم النفس الحديث، New Psychology بشرح التحليل النفسي ليفيد منه الآباء والمدرسون. وكتب "دكستر" Dexter عن التحليل النفسي في غرفة الدراسة Psychoanalysis in the School - Room وليس لي من تعقيب على هذا الاتجاه الحكيم. فكلنا يسلم بصوابه.

والتعديلات الخاصة بالعلاقة التعليمية التي استخرجت من الجزء الجديد الخاص بالطفولة في علم نفس الأعماق مجموعة ضخمة، ولو حاولنا اختصارها إلى خطوطها الرئيسية فحسب، لما اتسع المجال لذكرها في هذا العرض العاجل. ولهذا نكتفي باختيار اتجاهين منها. وأحدهما يتركز حول الحياة الانفعالية، ومنها حياة الحب في أوسع معانيها، وهذه المسألة في التعاليم الفرويدية تظفر بالتقدير الأسمى. والتعليم هو التوجيه الحكيم السير المأمون العاقبة في الاتجاهات الانفعالية ومزالق النواحي الشهوية.

والاتجاه الثاني الذي تختاره هو الخاص بإرشاد الطفل سواء أكان عياديًا أم للوقاية من الأمراض النفسية. وهي حركة كان من الجائز أن تقفز إلى المقدمة عن طريق آراء التربية التقدمية Progressive Education ودراسة الطفل، ولكن الدراسات الفرويدية ومنها البحوث الأدلرية التي عنيت كل العناية بهذه الآراء جرفت الحركة من طريقها، فإن

مودة التحليل النفسي والاهتمام به، ترجعان إلى إرشاد الطفولة، وتأمين الشباب من الأخطار التي تعترض طريق النمو والترقي، كما ترجعان إلى الأمل في تقديم المساعدة لعلاج الأمراض العصابية.

ويلتقي الأمران في نمو الخلق. ومن الواضح أن الحاجة إلى توجيه جديد لمنابع سمات الخلق، وإلى تأكيد الأهمية العظمى للطفولة يدعوان إلى إعادة النظر في مجموع العلاقة التربوية بين الشاب والطفل. والتحليل النفسي لا يقترح برنامجًا جديدًا كل الجدة للتعليم، ولكنه يغير مجراه وشكله الظاهري بقدر يعيد تقدير القيم البشرية. ولنا أن نتنبأ ونحن مطمئنون بأن التعليم، والأسرة، والعلاقات الاجتماعية، لن تعود إلى ما كانت عليه في العصور السابقة لفرويد.

المجتمع

علم النفس الاجتماعي كعلم نفس الدين، والمبادئ النفسية للتربية، كلها كونت مركزها مستقلة عن النهضة الفرويدية. ومعنى هذا أن علماء النفس الذين اهتموا بهذه الناحية قد طبقوا اكتشافاتهم على المشكلات الاجتماعية. وعلم الاجتماع رغم عدم تحديد رقعته، له غرض معين؛ فهو يتناول أوجه الطبيعة البشرية في البيئة الاقتصادية التي تؤلف المشكلات الاجتماعية.

ومن هذه المشكلات الجريمة، وهي نوع من السلوك جدير بأن يوجه إليه اهتمام خاص عاجل، وفهم الجريمة، والهيمنة على شؤونها،

وبعبارة أخرى فهم شخصية المجرم يعد من المسائل التي ترحب بأي ضوء يلقى عليها أيا كان مصدره. والتحليل النفسي يتعقب الجريمة والاعتداء على الآخرين، ويعزوها إلى الصراع النفسي في المواقف المختلفة. وتؤيد بحوث «هيلي» Healy و"برونر" Bronner هذا الموقف. وقد بحثا آلاف الحالات، وتعقبا تاريخها ثم وضحا بجلاء أن دراسة التحليل النفسي تعزز ما سبق أن سجله أطباء النفس، فأن عوامل الإصابة بالأمراض العصابية وتسبيبها للجريمة تمتد إلى نطاق أوسع من النسبة المئوية الصغيرة التي للمجرمين المصابين بالأمراض العصبية النفسية.

ويتفق الخبراء في الجريمة على أن العامل السائد في ارتكاب الجرائم هو البيئة، وقسوة الحياة، ولاسيما في الناحية الاقتصادية. فهذا العامل يسجل أكبر رقم في إحصائيات الجرائم. وفي التحليل الدقيق يتوازى الاستعداد لارتكاب الجريمة مع استسلام المريض العصبي لعلته، وخاصة بين الشباب، فالجريمة هي بالتأكيد إحدى مشكلات الشباب فالفشل الاجتماعي ـوهو جريمةـ وفشل المريض بأعصابه يشتركان في أن كلا منهما تسيطر عليه دوافع قوية ومقاومة ضعيفة وبعض المحللين النفسيين مثل "الكساندر" Alexander يطبقون وسائل التحليل النفسي بكل تفاصيلها على المجرم، وينسون المدى التافه الذي يصدق عليه من هذا التطبيق. ويرى آخرون في التحليل النفسي مفتاحًا جديدًا لفهم شذوذ السلوك الذي ينشأ من الظروف الاجتماعية والشخصية. ومن المعترف به أن الجريمة فصل من فصول علم النفس الشاذ. وأن أنواع

الصلات كثيرة بين ضروب الضعف العصبي، والجريمة تعاود الظهور عن طريق التحليل النفسي، وتجعل كلا من الصراع الشخصي والاجتماعي يضيء الآخر. ومشكلة المجتمع تقبع في سيطرته على الدوافع النفسية، وتحليلها النفسي هو أول خطوة في سبيل حلها، أما في التطبيقات الاجتماعية فإن فكرته وحدها تجعله مساهمة قيمة في حل مشكلة الإجرام.

ولا تزال الجريمة أحد فصول التحليل النفسي الفردي، أما التطبيقات الاجتماعية فمن طراز آخر، فهي تنقل الاكتشافات التي عثر عليها في أثناء دراسة الفرد لتعمم على الجماعة. وقد حلل مارتن D. E. Martin عقلية الحشد، وطبق «كولناي» Kolnai مدركات التحليل النفسي على المنتجات الاجتماعية، ودرس ريفرز تأثير البواعث النفسية التحليلية في ميدان السياسية، وصور "لازول" Laswell السمات النفسية عند المهيجين السياسيين والمشرعين وربطها بسمات الأمراض العصابية، وحالة الأسرة. وأقترح "بارو" Burrow في عبارات مبهمة إعادة كتابة التحليل النفسي على أسس اجتماعية.

وهكذا فإن المنزل الذي بناه فرويد لفهم الفرد وإيضاح أحواله صار نموذجًا للعلاقات الاجتماعية، فإن مدركات التحليل النفسي أثرت بطريق مباشرة في تأسيس طب النفس الاجتماعي. ولقد بدأ هذا الاتجاه في أول أمره لجعل الدوافع مادة اجتماعية. وهو ما أعترف به النفسيون، وأكده المحللون. ولما كان عرض الفرد لذاته يرمي إلى الظفر بتقدير المجتمع،

فإنه يحتاج ولا ريب إلى معرض يشاهد فيه، ونظارة يرونه. وسيان في هذا المجال اعتراف فرويد بأنه "الاستعراء" [٦٥] Exhibitionism، أو قول "يونج" بأنه توسع من "الأنا" Ego، أو تعريف إدلر، بأنه مظهر طموح الفرد ليثبت تفوقه. في كل الدوافع تنمو في مجال اجتماعي. والفرد على صلة دائمة بالقيود الاجتماعية، ومن الجائز أن يكون في صراع معها. وسلطان القطيع يتجلى في "الرقيب" عند الفرويديين، وقد زاده «ريفرز» انطباقًا على الناحية الاجتماعية. ولا ريب أن البناء الاجتماعي للجماعة يكرر البواعث النفسية التي للأفراد المؤلفين لوحدته، ولا فرق في هذا بين الجماعة إن كانت طائفة أو طبقة أو حزبًا أو قبيلة أو أمة.

وأنواع الصراع المختلفة بهذا الشكل لها آثار هامة، فبينما التلاؤم والانسجام مع البناء الاجتماعي ضروري، فإن طريقة قبول التزاماته تصبح عاملًا نفسيًا حاسمًا في تكييف الفرد وجعله سويًا عاديًا. ومن الجائز أن تؤدي إلى نشوء المتطرفين ومذاهب التطرف التي صارت موضوعًا من موضوعات التحليل النفسي البحث الدوافع إلى الاحتجاج أو التحدي في وجه، والدوافع إلى الاختلاف في وجه آخر. ومن الجائز أيضًا أن تتضح معالم الميل إلى الانسجام والتلاؤم، وهذا يرجع إلى استعداد الفرد للاستجابة إلى السلطة. ومن أجل هذه الاستجابة تعد الأسرة مركزًا للتدريب، كما أنها هي نفسها معهد اجتماعي.

---

[٦٥] الاستعراء. ومعناها العام المغالاة في التصرف للفت الأنظار. وتعني في التحليل النفسي _مظهرًا جنسيًا في الطفولة، وتظهر بعدئذ لإرضاء الدوافع الجنسية وعندئذ قد يميل المريض إلى الكشف عن جسمه. المترجم

والأب عنصر هام رغم كل الصور المبالغة والمتطرفة التي صورت موقفه، سواء في الواقع أو الخيال. فهو كرئيس الأسرة يضع لون حكومته في نطاق أسرته، أما توزيع مهام السلطة فتتبع اتجاهات أخرى. والأبوة مهمة سياسية، وحكم الآخرين علاقة اجتماعية دقيقة، وأنواع الضبط الاجتماعي تخضع لألوان العلل النفسية، وسوء الانسجام، والتلاؤم مع البيئة. وهذا يسرى على كل مؤسسة أخرى سواء أكانت معبدة أم دولة، نظامًا ديمقراطيًا أم تعسفيًا. وهو يسري على الجمعيات والأكاديميات، وعلى أية هيئات تتجمع بغير هدف معين.

وتعاني الآراء والنظم المصير نفسه، ففي الجموع المحتشدة يكمن نوع من الجنون والهوس. ومن وجهة نظر التحليل النفسي يبزغ مثل أعلى، وهو أن الجماعة يجب أن تعمل بحكمة لإرضاء الدوافع الأساسية العميقة، وإلا خيمت الفوضى والقلق والبؤس والشعور بالخيبة؛ فالحكومات تقوم من أجل الناس، ويجب أن تحاسب وفقًا لما توفر لهم من الحاجات البشرية. ومن بين العلوم الإنسانية الحديثة استجاب علم الاجتماع بعطف للاتجاهات الفرويدية في مدركاتها وأغراضها.

السير

يتضمن التحليل النفسي تحليل الخلق[٦٦]. والانتقال إلى هذا النوع من التطبيقات يكمن في المعنى العام للاكتشافات الحديثة.

---

[٦٦] تكوين الخلق جزء تكميلي هام في نظام التحليل النفسي وسنعالج موضوعه في آخر الباب السابع في القسم الخاص بالجنس والشخصية. المؤلف

"وقراءة الخلق" من الأغراض الهامة لعلم النفس من أيام "ثيوفراستوس" Theophrastus وقبلها. وكانت من المسائل التي تناولها "جون ستيوارت ميل" John Stuart Mill من زمن طويل، وأطلق عليها أسم علم الأخلاق الاجتماعية Ethology وقد تتبع الألمانيون خطى «باهنسن» Bahnsen وسموها "علم الخلق" Characterology.

وكان فرويد منهمكًا كل الانهماك في دراسة سمات المرضى بأعصابهم، وتتبع تاريخ حالاتهم. والعقدة _اصطلاح وضعه "يونج"_ هي أول مرحلة في مجموعة تلك السمات. أما الخلق فهو تكامل أدركه فرويد في الاتجاه البنائي العام للجسم، ولكنه استخدمه وطبقه في اقتصاد وحذر. واكتشاف البواعث الخفية في السلوك اليومي من المسائل الشديدة الصلة بقراءة الخلق. والأنماط الخلقية عند يونج من أهم الأمور، وعن طريقها أتصل بعلم الخلق. أما علم النفس عند إدلر، فيتناول فكرة الخلق من ناحية نمط الحياة، فالخلق يتشكل وفقًا لمطالب الأهداف في بيئة ما.

وإلى أفضال فرويد الكثيرة يمكننا أن نضيف فضلًا آخر، فاليه يعزى فضل القيام بدور هام في كتابة السير النفسية للعظماء، وتوجيه اهتمام خاص إلى خلقهم النفسي الدفين، وأكثرهم ممن أعترف العام بنبوغهم وجعلهم في الغالب كأبطال تعبد عن طريق ضال. ويلاحظ أيضًا أن هذا الاهتمام ينطوي أيضًا على خطر المبالغة فيه. وإذا كان البطل لا يمثل مرتبة البطولة في عيني خادمه الخاص، فإن هذا قد يرجع إلى قصور

في فهم الخادم: أما تجرد البطل من بطولته في عيني المحلل النفسي فيقوم على أساس آخر.

وقد فهم فحص التحليل النفسي للعظماء بعد وفاتهم على أنه مكمل للبرنامج الحالي لسرد سيرهم وليس بديلًا منه، فالتحليل يعتمد على بيانات مسجلة، ويعدها مفتاحًا لدراسة عميقة للشخصية. وكانت أول دراسة لفرويد عندما حلل شخصية ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci وتبع هذه البداية عدد من المحللين النفسيين، فحللوا على نمط فرويد، وبطريقة قريبة أو بعيدة من طريقته، عدة شخصيات أخرى. ومن أمثلتهم "ل. بيرس كلارك" L. Pierce Clark إذ عرض مجموعة هامة من الشخصيات التاريخية لفحص التحليل النفسي.

وسلك بعض المحترفين في كتابة السير السبيل نفسه فكتب "أميل لودفيج" Emil Ludwing تحليله لقيصر ألمانيا. وكان الهدف من هذه التحليلات النفسية إزاحة الستار عن الشخصيات "الحقيقية" لإبراهام لنكولن، ومارك توين، ونابليون، وبيرون ونيتشه[٦٧]، فتتم دراستهم على

---

[٦٧] ساهمت الدكتورة «لوسيل دولي» Lucile Dooley تحليل هذه الشخصيات العظيمة. وهذه التحليلات. تشمل التفسير التحليلي النفسي للحياة وتتشعب حتي تتناول الأحداث الهامة أو التافهة في الطفولة وفي الأحلام، وفي العلاقات الخاصة وفي العمل، وتشير إلى العقد النفسية، وكل شيء هام عند فرويد. وقد ظهرت تفسيرات تحليلية لشخصيات المسيح، وبولس الطرسوسي، وفرانسيس الأسيزي، ولوثر، وسويد برج، وماري بيكرادي وكلهم من المتصلين بالدين، وظهرت تحاليل أخرى لأحكام مثل الإسكندر الأكبر؛ وهنري الثامن، والملكة اليزابث، ونابليون، ولويس نابليون، والملكة فيكتوريا، وروزفلت، وودرو ويلسون، ولينين. ومن الفنانين أيضًا ظهرت سير ليوناردو دافنشي ومشيل أنجلو، وأندريا دل سارتو، وشوبير، وفان جوخ. أما عن المفكرين فظهرت مؤلفات عن سقراط وداروين وشوبنهور، وفشر، ونيتشه، وروسو، وتلستوي. ومن الكتاب هومير، وأناتول فرانس، وشارلوت برونتي، وأميل بروني، ومويسان ودستوفيكي، وديماس، وفلوبير، وفرانسيس تومسون وجوته وهيبل، ونوت همون، ومارك توين، وأوسكار

أساس البواعث النفسية وحالتهم الطبيعية، أو الشاذة. وقد نشأت مدرسة رزولا، Zola الواقعية مستقلة عن فرويد، وأقرت أن الإنسان ككائن حي يجب أن تسجل سيرته في عمق، وبطريقة تصويرية إلى جوار شخصيته في حياته العملية.

ويظهر الاتجاه نفسه حيال الكتابات الأدبية، وفيها يجد الدليل الفرويدي للشخصية تعبيرات مختلفة تلائمه. وقد حلل فرويد الخيالات والأحلام في قصة جراديفا Gradiva للشاعر جينسن W. Jenesen. ومع أن الشاعر لم ير هذه الأحلام، ولكنه نظم شعرها، فأنه عزاها إلى خلقه، إذ هي تتلاءم مع أصل الأحلام، وهي تدل فرويد على أن وسائل البصيرة الشعرية مثل خيالات الأطفال يمكن تفسيرها بالتحليل النفسي.

وإذا ما قبلت هذه المفاتيح أو الأدلة الفرويدية، فإنه يتيسر الانتقال بسهولة إلى تأليف الشخصيات الخيالية، ولا سيما في القصص والمسرحيات التي تنسج على منوال النماذج الفرويدية البواعث النفسية. ومن الأمثلة الواضحة مسرحية "الكترا في حداد" Mourning Becomes Electra للكاتب أونيل Oneill. وفي هذه المسرحية تظهر مواقف عقدة أوديب في إخراج حديث، وتعمل كمصدر للصراع النفسي الشخصي والموقفي الذي تعالجه المسرحية. وبهذا التطبيق التام للموقف الأوديبي يعد مؤلف المسرحية «كاتبة فرويديًا» أما إن كان هذا يناسب

ويلد، وبو، وشنيزلر وسترند برج. وامتدت هذه التخيلات إلى الكتابات الأدبية فتناولت شخصيات ليدي مكبث، وشايلوك وهاملت وسالومي، وليليوم، وبيرجنت وشخصيات مآسي سوفوكليس، ومسرحيات ريتشارد فاجر. (المؤلف)

المسرحية أولا يناسبها، فهذا موضوع آخر، وهو يتوقف على مدى السوية واللاسوية الموجودة فيها.

ومن الأعمال المشروعة تطبيق علم نفس الأعماق لفهم شخصيات وأعمال من كان له أثر بارز في مجرى الأعمال البشرية، فإن أحوال المرء وتصرفاته في شؤونه الداخلية الخاصة تتجلى وتطغى على أحواله وتصرفاته العامة. وسرد سير العظماء يحتاج إلى تكملته بإضافة البواعث الخفية، وإظهار ما في خلقهم من محاسن ونقائص. وهذا هو لب التحليل النفسي. وبما أن إلقاء هذا الضوء يعكس نظريات التحليل الفرويدي وفروضه، فإن تنفيذه يتعرض لنفس النقد الذي يسري على مبادئ فرويد الخاصة بتكوين الشخصية.

وهذا الفصل في الفرويدية هو أكثر أجزائها مثارة للنزاع والجدل، فإن الفروض الخاصة بالنفسية الجنسية تتخلله من نواح عدة، وسنناقشها في حينها. وحتى إذا رفضنا هذا الموضوع في تفاصيله، فإن الجزء الأساسي فيه يظل دون أي تجريح، وهو موضوع من اختصاص النفسيين، وتبعًا لهذا ؛ فإن سرد سير العظماء يجوز، بل يجب أن يخضع لهذا الاتجاه. فالشخصية، والعمل العام للإنسان، رغم خضوعهما للظروف والمناسبات، فهما إشعاعات للسمات الأولية والثانوية التي تعمل في المستوى العلوي للتكامل الذي نحيا فيه .. وحياتنا المتحضرة بنوع خاص.

وانعكاسات "علم نفس الأعماق" في دراسة الشخصية كسب دائم، وإليه أضافت بحوث الفرويديين ومغامراتهم التطبيقية عمق وثروة وانتشارًا بين الناس، وإن تكن قد شوهتها بالمغالاة.

ونفس طريقة الفهم التي تطبق على حياتنا تخدمنا في توضيح حياة الآخرين، وتعزز عملية سرد سيرهم. أما مسألة صلاحية الفهم وأصالته فهذا موضوع آخر.

والكتاب الذين يعطفون على وجهات نظر التحليل النفسي يصورون أخلاق شخصياتهم على أنها مدفوعة للعمل على طريقتها. وتحرير الناحية الجنسية من قيودها موضوع متشعب مطروق، وفي بعض الأحيان يبدو المسرح البشرى كما يظهر في المؤلفات الأدبية، وكأنه يقترب من عيادة الطبيب. وكما أن الأدب يعكس مظاهر الحياة، ويؤثر عليها بصنع نماذج لها، واستخلاص أخرى منها، فإن صبغ كل ما يعيش الناس من أجله وبه بالصبغة الفرويدية قد غزا كل علاقة دفينة. ومنذ ظهر فرويد ونحن نعيش ونفكر بطريقة مختلفة، وسواء وافقنا عليها كلها أم لم توافق فأننا نستحسن التغيير.

الفنون

يصدق على الأدب ما يصدق على الفنون، وأن تكن العلاقة أقل تحديدًا. فالدافع الابتكاري في حد ذاته مشكلة في علم النفس، وهو أيضًا معرض لتفسيرات التحليل النفسي، وفي مختلف العصور كان

اللاشعور يعبر عن نفسه بطريقة تصويرية، فالرمزية في الرسم والتصوير قديمة كما هي في الأدب، وكانت الرسوم سببًا في شيوع العقائد الدينية. وبزيادة التقدم في الوسائل الفنية، وبالتحرر الحديث في الموضوع، اكتسب فن الرسام مزيدًا من التعبير الذاتي.

وفن التصوير يمكن أن يحلل نفسيًا، وتخضع الموسيقى أيضًا للتفسير نفسه. حقيقة أن النغمة الحديثة ذات أصل معقد، ولكنها تعبير واضح أصيل للنفس. والواقع أن الفن قد فسر على أنه نشاط تعويضي، والتجاء للخيال في محاولة الهرب من المطالب القاسية لمبدأ الواقعية.

ولو أفضنا في شرح هذا الموضوع لكانا قد أيدنا المبدأ القائل بأننا نعيش في الخيال، أو نكمل فيه ما حرمنا منه في الواقع أو بدا ناقصًا. وهذا الموضوع يؤلف علم نفس للفنان الحي في كثير من الناس، إن لم يكن في كل إنسان. وبما أن الفن ابتداعي في روحه، فإن أغراء ربطة بالابتكارات الوثيقة الصلة بالتسلسل السلالي، إن هو إلا إغراء جديد للتعرف على دوافع نفسية متوازية وليست متقارنة. وهذا الابتداع هو الذي يدفع الشاعر إلى التحدث عن شعره ويقول عنه إنه من بنات تفكيره، والفنان يعمل ليحقق الأحلام. والفن يسجل في أوساط ملائمة للاشعور. فالصلة بين الفن والتحليل النفسي صلة مزدوجة توضح شخصية الفنان بتحليله نفسيًا، وهي تفسر استخدامه للمبادئ الفرويدية، وخاصة في المسرحيات.

ومن كان عمله العناية بتقلبات السلوك البشري، فأيًا كان اتجاهه، فإنه يحتمل أيضًا أن يوجه اهتمامه إلى الفنون. وربما كان طبيبًا "يطلع على الآداب" كما يطلع على حوادث الحب والحياة التي – تعرضها المؤلفات الأدبية. وفي كل باحث نفسي محلل نفسي، وهو في كثير من الفنانين يعبر عن نفسه بالخلق والأبداع، كما يعبر عنها بالنقد.

ومن الواجب أن أترك للأدباء المؤهلين في الحاضر أو المستقبل مهمة دراسة تغلغل الموضوعات الفرويدية في الإنتاج الأدبي. وإذا ما قبلت هذه الموضوعات على أنها دليل يوجهنا، فإنها يحتمل أن تقرر حبكة وقسما من ألوان الحياة المتشابكة في كل عصر وبيئة. والتقدم الحالي للفنون يدل على ما في الموضوعات التي أذاعها التحليل النفسي من روعة واستهواء. وآراء فرويد في الآداب، كما هي في الحياة، أعادت تفسير العلاقات البشرية بزج الشعور العيادي فيها. وسواء ساعدت هذه العملية الأديب أو عرقلته في أداء مهمته، فهي مسألة جديرة بالبحث. وليس في علم النفس من اتجاه كان يمكن أن يحدث مثل هذا التأثير الشامل، فإن تطبيق آراء فرويد امتد إلى مدى بعيد كل البعد.

المدنية

أهم التطبيقات للتحليل النفسي كانت على المدنية ذاتها، فكانت في يد فرويد نقدًا لاذعة لمدينتنا. وهي تقترح ثورة لا مثيل لها عن طريق النظر إلى حياتنا من وجهة جديدة، وبها تنتقل مدينتنا إلى عيادة التحليل النفسي وهي تأمل، كما يأمل المريض، أن تخرج بفهم أفضل لنفسها.

فالصراع فيها قائم بين حياة الدوافع النفسية وبين الحياة المنطقية القائمة على العقل. ويتردد السؤال في ألفاظ "زفايج" Zweig[٦٨] الذي سجل تقديرًا هامًا لفرويد كانسان وكمفكر. وقد تساءل عما إذا كانت محاولات جعل "الأنا" اجتماعية مما يتم باسم التقدم والرقي قد خدعت الإنسان في الواقع وأعمته عما يجري في أعماق نفسه.

ونظرة حديثة أخرى إلى الموضوع. قد أوحى بها "إدوارد كاربنتر" Edward Carpenter في كتابه «المدنية: سببها وعلاجها»، Civilization: Cause and Cure فقال إن المدينة ليست بالضبط مرضًا عصبيًا، ولكنها معضلة، وكل أنواع الفلسفة حلول لها، ولكن بالهرب، أو بإهمال الحل في يأس وتشاؤم وعندما أدرك فرويد سيادة حياة الدوافع، وأن الأمل الوحيد هو مع ذلك في السيطرة عليها، فإن الأمر حيرة، وأقض مضجعه.

وخير ختام هذا الباب هو الاعتراف بفضل فرويد كفيلسوف، فإن مقالاته التي كتبها في أيام الحرب، ومنها تأملاته في الموت، تدل على مزاج تأملي يحسد عليه، إذ نجح حيث أخفق كثير من المفكرين، رغم ما كانوا يستمتعون به من ميزات: ويعد كتابه «مستقبل خداع» (١٩٢٨) نموذجًا ممتازًا لعرض حالة المرتاب الديني. وهو كالكتاب الذي تلاه "المدنية والتبرم بها" Civilization And Its Discontent (١٩٣٠) تسوده نغمة التشاؤم واليأس، ولا تظفر فيه بأمل أو عزاء.

---

[٦٨] كتاب سادة الشفاء Masters of Healing صدر في عام ١٩٣٢ (المؤلف)

ويتفق موقف فرويد مع أوجه النظر الجوهرية التي تنشأ من العقد النفسية التي شغلت مظاهر عللها العصبية اهتمامه المهني. وهو يعترف بأن ميله إلى الطب لم يكن على أشده، وأنه كان عياديًا عن طريق التحليل. ومن هذا يميل الإنسان إلى اعتبار موضوع تطبيق التحليل النفسي على فلسفة الحياة من أحب أعمال فرويد.

وكان تزوده بالمبادئ عاملًا على تحريره ليصل بها إلى نتائجها المحتومة. ومن ثم صار فليسوفًا عياديًا.

ولقد سردت في هذا العرض من تطبيقات التحليل النفسي ودلالاته ما يكفي ويوضح، أن الفرويدية تسعى إلى ما هو أكثر من نظرية علمية عن أمراض الأعصاب، وما يتعلق بها من التكوينات العقلية _وهي تتألف من أكثر من علاج ومن مبادئ تربوية_ إنما هي محاولة لفهم فلسفة الحياة. وتطبيقات التحليل النفسي، وكثير منها من صنع عدد كبير من المفكرين الذين لا يمتون بصلة مباشرة إلى علم النفس أو طب أمراضها، مما يوضح مدى الأثر الكبير للآراء الفرويدية. وفي هذا يقبع الإغراء والتحدي، فالفرويدية تقترح إعادة بناء على معرفة العقل، ومحاولة السيطرة على التصرفات النفسية وقيمتها بالوسائل العلمية.

والعلم من حيث هو طريقة للفهم لا يجتذب إلا الأقلية المفكرة، وأصحاب العقليات الذين يوجهون مجرى حياتهم على هدى ما يؤلفونه من صور بعد نقدها. فإن كان هذا العلم خططًا وسياسة حياة واضحة الأهداف والقيم، فإنه سيؤثر على جمهور أكبر. ومهما كان عددهم

ونسبتهم إلى المجموع، فهم أولئك التواقين إلى ما يرشدهم إلى الطريق السليم في تدبير أعماله الخاصة. وهنا تقع الأهمية العظمى للبيت الذي بناه فرويد، فهو يقترح طرازًا جديدًا حديثًا لهندسة النفس. وإذا ما قبل اقتراحه، فإنه ينشئ مسكنًا جديدًا لتقيم فيه البشرية.

وعلى هدى القرار العرضي في ظاهره والخاص بمدى صحة آراء فرويد أو خطئها تتقرر كثير من النتائج الخطيرة الشأن والمتغلغلة إلى أقصى مدى في المصالح البشرية كافة. وهذه الأهمية سواء أكانت أصلية أم مزعومة، فهي حافز هام يدفعنا إلى نقد هذه الآراء.

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني

الفهرس